(ما هي القبلة في كتاب الله؟)

(تمهيد)

يقول الحق "ولله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله وسع عليم" و يقول "و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة و العشي يريدون وجهه"

انما المراد هو وجه الله, و ما عدى ذلك فهو شرك و الحاد. و ليس لوجه الله حد أو موضع معين أي قبلة معينة دون قبلة, انما هذا صنع لأوثان و طمس لعرفان. هذا ما أثبته القرءان و صدقه العيان و الوجدان.

فماذا فعل الأحزاب؟ فلننظر في كتب تفاسيرهم و ميسراتهم لنرى ماذا قالوا في هذه الاية المباركة العالية ثم نعلق عليها و لن أذكر الا اقراراتهم المهمة, و الا لست في مقام نقد كل ما يقولونه خاصة لو كان رقيعا مثل الذي يقول أن "وجه الله" تعني الكعبة لأنه يمكن التوجه اليها من كل مكان (و كأن الأصنام الموجودة في الهند لا يمكن التوجه اليها من كل مكان! و هذا معذور لأنه لم يكن يعلم بأن الأرض كروية), فمثل هذه السخافات لن نهتم بها و لكن سنذكر الأمور التي لها قيمة و التي يمكن ان تكشف لنا عن اقرارهم بحق أو تحريف ظاهر فلننظر معا في هذا البحث الأكبر في دائرة الدين و العرفان...

فلنبدأ بالشيعة الامامية:

1 في كتاب مجمع البيان للطبرسي في ذيل الاية يقول " و قيل كان للمسلمين التوجه حيث شاءوا في صلاتهم و فيه نزلت الاية ثم نسخ ذلك بقوله "فول وجهك شطر المسجد الحرام" و أيضا "عن قتادة قال: و كان النبي صلى الله عليه و سلم قد اختار التوجه الى بيت المقدس و كان له أن يتوجه حيث شاء" و أيضا "و قيل نزلت في صلاة التطوع على الراحلة تصليها حيثما توجهت اذا كنت في سفر و اما الفرائض فقوله "و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" و أيضا " فَثَمَّ أي فهناك وجه الله أي قبلة الله, عن الحسن ومجاهد وقتادة, والوجه والجهة والوجهة القبلة" و أيضا "وقيل معناه فثم الله يعلم ويرى فادعوه كيف توجهتم"

2 في كتاب تفسير القمي يقول "نزلت في صلاة النافلة فصلها حيث توجهت إذا كنت في سفر وأما الفرايض فقوله " وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره "يعني الفرائض لا تصليها إلا إلى القبلة".

3 في كتاب التبيان للطوسي ينقل "قال ابن عباس: واختاره الجبائي انه رد على اليهود لما انكروا تحويل القبلة إلى الكعبة، وقال: ليس هو في جهة دون جهة، كما تقول المشبهة" و أيضا "كأنه قال: لا يمنعكم تخريب من خرب المساجد ان تذكروه حيث كنتم من أي وجه، وله المشرق والمغرب، والجهات كلها ".و أيضا بداهة "السعة نقيض الضيق".

4 في كتاب الميزان للطباطبائي "فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها وهو معها، فالمتوجه إلى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى" و أيضا "فأينما تولوا جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك" و "فالتوجه إلى كل جهة توجه إلى الله، معلوم له سبحانه" و أيضا "واعلم أن هذا توسعة في القبلة من حيث الجهة لا من حيث المكان، والدليل عليه قوله:ولله المشرق والمغرب " و ينقل رواية مشهورة "وصلّى رسول الله إيماءً على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكة، وجعل الكعبة خلف ظهره " و استنبط العلامة من اخبار أئمته و خبرته هذه القاعدة القرءانية المهمة جدا "أن كل جملة وحدها، وهي مع كل قيد من قيودها تحكي عن حقيقة ثابتة من الحقائق أو حكم ثابت من الأحكام".

5 في كتاب الصافي للفيض الكاشاني يقول "وَلِلّه الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ : يعني ناحيتي الأرض أي له كلها " فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ " قيل اي ذاته إذ لا يخلو منه مَكان " إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ " ذاتاً وعلماً وقدرة ورحمة وتوسعة على عباده " عَلِيمٌ " بمصالح الكل وما يصدر عن الكل في كل مكان وجهة " و ينقل رواية تقول "رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم كان يصلي على ناقته النافلة وهو مستقبل المدينة يقول فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله إنّ الله واسع عليم" و ينقل عن جعفر الصادق "وما بين المشرق والمغرب قبلة ونزلت هذه الآية في قبلة المتحيّر"

6 في كتاب بيان السعادة للجنابذي يقول "وامتياز المساجد الصوريّة من بين بقاع الارض باسم المسجد واسم بيت الله ليس بهذا المعنى ولا لخصوص البقعة ولا لخصوص اللّبنة والطّين والجصّ وسائر آلات البناء، ولا لخصوص البنّاء والعملة والاّ لشاركها فى هذا الاسم كلّ ما شاركها فى هذه بل الامتياز بنيّة الواقف" و أيضا "فالمساجد حقيقة والبيوت الّتى أذن الله ان ترفع :هى الصّدور والقلوب المنشرحة المستنيرة" و أيضا "وامّا الاغراض الأخر كالصّيت والمراءاة والتَمدّحِ وغيرها من الاغراض فتجعل البناء بيتاً للشّيطان" و أيضا يقول "فأينما تولوا أيها المؤمنون أي في اي بقعة من بقاع الأرض تولوا اليه فثم وجه الله, لا اختصاص له ببقعة دون بقعة, و الوجه كما مضى ما به ظهر الشئ و ما به توجهه و استقباله و ذات الشئ". و "فلا اختصاص لبقعةٍ دون بقعةٍ بالعبادة والتوجّه الى المعبود فى نفسها لكن قد يعرض لبعض امتياز عن الاخرى بامور خارجة" و "إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ : لا يخلو منه مكانٌ ومقام شيءٍ وفيءٍ كما عرفت " عَلِيمٌ" فيعلم منكم ما تفعلونه كيف تفعلونه وفى اىّ مكانٍ تفعلونه فعليكم بتصحيح الأعمال لا تعيين المحلّ والجهة لها"

و الان فلننظر في تفاسير أهل السنة:

1 في كتاب بحر العلوم للسمرقندي يقول "يعني أينما تولوا وجوهكم في الصلاة فثم وجه الله" و ينقل رواية "النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يصلي إلى بيت المقدس فلما أمر بالتحول إلى الكعبة، قالت اليهود: مرة تصلون هكذا، ومرة تصلون هكذا، فنزلت هذه الآية " و يقول "ويقال: واسع يعني يوسع عليكم أمر الشرائع، ولم يضيق عليكم الأمر"

2 في كتاب النكت و العيون للماوردي ينقل رواية في سبب نزول الاية "سبب ذلك، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يستقبل بصلاته بيت المقدس بعد هجرته ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، حتى قالت اليهود: إن محمداً وأصحابه، ما دروا أين قبلتهم حتى هديناهم، فأمرهم الله تعالى باستقبال الكعبة، فتكلمت اليهود، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا قول ابن عباس" و رأي اخر "هذه الآية نزلت قبل أن يفرض استقبال القبلة، فأباح لهم أن يتوجهوا بصلاتهم حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب، وهذا قول قتادة وابن زيد " و رأي اخر "أنها نزلت، فيمن خفيت عليهم القبلة، ولم يعرفوا جهتها، فَصَلُّوا إلى جهات مختلفة" و ينقل رواية اخرى أن النبي عليه السلام أمر المؤمنين ان يصلوا على النجاشي ملك الحبشة فاعترضوا بقولهم انه "لم يكن يصلي الى القبلة فأنزل الله تعالى "و لله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله" و رأي اخر أن الله لما أنزل "ادعوني استجب لكم" قالوا "الى أين" (أي الى أين نتوحه عندما ندعوك) فنزلت "فأينما تولوا فثم وجه الله". و اخيرا يقول أن "فثم وجه الله" تحتمل معنيان: فثم قبلة الله, و فثم الله و يكون "الوجه عبارة عنه كما قال تعالى "و يبقى وجه ربك" "

3 في كتاب المحرر الوجيز لابن عطية ينقل " وقال أبو منصور في المقنع: يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه، كما تقول فلان وجه القوم أي موضع شرفهم، فالتقدير فثم جلال الله وعظمته" و ينقل " وقال النخعي: الآية عامة أينما تولوا في متصرفاتكم ومساعيكم "فثم وجه الله" أي موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بالطاعة" و

يبرر عمل النجاشي بان " النجاشي كان يقصد وجه الله وإن لم يبلغه التوجه إلى القبلة" و ينقل عن المهدوي تفسيره و ربطه بين الاية السابقة و هذه يقول " لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات، فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب { فثم وجه الله } موجود حيث توليتم" و يقول أيضا " قيل { واسع } معناه هنا أنه يوسع على عباده في الحكم, دينه يسر، { عليم } بالنيات التي هي ملاك العمل، وإن اختلفت ظواهره في قبلة وما أشبهها "

4 في كتاب زاد المسير لابن الجوزي يقول " وهذه الآية مستعملة الحكم في المجتهد إذا صلى إلى غير القبلة، وفي صلاة المتطوع على الراحلة، والخائف. وقد ذهب قوم إلى نسخها، فقالوا: إنها لما نزلت؛ توجه رسول الله إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك بقوله "و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" و تأمل روايته هذه جيدا " قال شيخنا علي بن عبيد الله: وليس في القرآن أمر خاص بالصلاة إلى بيت المقدس، وقوله { فأينما تولوا فثم وجه الله } ليس صريحاً بالأمر بالتوجه إلى بيت المقدس، بل فيه ما يدل على أن الجهات كلها سواء في جواز التوجه إليها، فإذا ثبت هذا؛ دل على أنه وجب التوجه إلى بيت المقدس بالسنة، ثم نسخ بالقرآن"

5 في كتاب تفسير القرءان لابن عبد السلام يذكر أحد الاحتمالات في تفسير الاية فيقول " أو أذن لهم قبل فرض الاستقبال أن يتوجهوا حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب" و أيضا " وجه الله قبلته او الله كقوله "و يبقى وجه ربك" ".

6 في كتاب مدارك التنزيل للنسفي يقول في "فثم وجه الله" " أي جهته التي أمر بها ورضيها. والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان" و "قيل: فأينما تولوا للدعاء والذكر"

7 و في كتاب لباب التأويل للخازن " وقيل: إنها نزلت في تخيير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليصلوا حيث شاؤوا من النواحي ثم إنها نسخت بقوله تعالى "فول وجهك شطر المسجد الحرام" " و أيضا " فلما أمرهم(العباد) باستقباله فهو القبلة فإن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلة، وأمر بالتوجه إليها { فأينما تولوا فثم وجه الله } أي فهنالك قبلة الله التي وجهكم إليها، وقيل معناه فثم وجه الله تعالى بعلمه وقدرته. والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة"

8 في كتاب البحر المحيط لابو حيان كلام رائع أغناني عن التعليق بمثله لاحقا, يقول معقبا بعد ان ذكر الروايات و التأويلات المختلفة المتضاربة " وهذه أقوال كثيرة في سبب نزول هذه الآية، وظاهرها التعارض، ولا ينبغي أن يقبل منها إلا ما صح، وقد شحن المفسرون كتبهم بنقلها. وقد صنف الواحدي في ذلك كتاباً قلما يصح فيه شيء، وكان ينبغي أن لا يشتغل بنقل ذلك إلا ما صح. والذي يظهر أن انتظام هذه الآية بما قبلها هو: أنه لما ذكر منع المساجد

من ذكر الله والسعي في تخريبها ، نبه على أن ذلك لا يمنع من أداء الصلوات، ولا من ذكر الله، إذ المشرق والمغرب لله تعالى، فأي جهة أدّيتم فيها العبادة، فهي لله يثيب على ذلك، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد" و يقول " و معنى التولية: الاستقبال بالوجه. و قيل معناها الاستدبار من قولك :وليت عن فلان اذا استدبرته, فيكون التقدير: فأي جهة وليتم عنها و استقبلتم غيرها فثم وجه الله" و يقول كلاما رائعا أيضا " وفي قوله: { فأينما تولوا فثم وجه الله } ردّ على من يقول: إنه في حيز وجهة، لأنه لما خير في استقبال جميع الجهات دل على أنه ليس في جهة ولا حيز، ولو كان في حيز لكان استقباله والتوجه إليه أحق من جميع الأماكن. فحيث لم يخصص مكاناً، علمنا أنه لا في جهة ولا حيز، بل جميع الجهات في ملكه وتحت ملكه، فأي جهة توجهنا إليه فيها على وجه الخضوع كنا معظمين له ممتثلين لأمره" و أيضا " عليم: أي بمصالحهم أو بنيات القلوب التي هي ملاك العمل، وإن اختلفت ظواهرها في قبلة وغيرها"

9 و في كتاب التفسير لابن عرفة, عرضت شبهة لابن عرفة و هي أنهم قالوا ان الله هو مثل الفلك المحيط دائريا بالعالم فرد عليهم بقوله أن " لفظ " ثَمّ " (يعني في قوله :فأينما تولوا فثم وجه) يقتضي وجوده في المكان الذي يقع فيه التولي حقيقة، وإذا كان كالفلك فليس هو في ذلك المكان"

10 في كتاب غرائب القرءان للقمي النيسابوري ينقل " عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه و سلم قال"ما أمرت بتشييد المساجد" قال ابن عباس: بزخرفتها كما زخرفت اليهود و النصارى. التشييد رفع البناء و تطويله, و الزخرفة التزيين و التمويه. و أمر عمر ببناء مسجد فقال: أكن الناس من المطر, و اياك ان تحمر او تصفر فتفتن الناس" يقرر أيضا أن " القبلة ليست قبلة لذاتها بل بجعل الله تعالى" و يقول أيضا ناقلا مقرا " فكل منهما (اليهود و النصارى-حسب قوله) وصف معبوده بالحلول في الأماكن، ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق" و ينقل أيضا رأي غريب فعلا, أن الله نسخ استقبال بيت المقدس "بالتخيير الى أي جهة شاؤوا بهذه الاية و كان للمسلمين ذلك. الا أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يختار التوجه الى بيت المقدس, ثم انه تعالى نسخ ذلك التخيير بتعيين الكعبة" و يذكر رأي أغرب من سابقه يقول " فمعنى الآية أينما تولوا وجوهكم لنوافلكم في أسفاركم فثم وجه الله، أي فقد صادفتم رضاه" و بعد أن ذكر الاراء المختلفة في تفسير الاية و اسباب نزولها ذكر أغرب ما رأيته الى الان يقول " ولا يخفى أن الآية على الوجه الأول ناسخة، وعلى الوجه الرابع منسوخة، وعلى سائر الوجوه لا ناسخة ولا منسوخة" و يقول مفسرا " فمن وجه وجهه نحو شيء منها (اي كل الجهات) يريد طاعتي وجد ثوابي" و يروي عن النبي عليه الصلاة و السلام انه قال "جعلت لي الأرض مسجدا" و أيضا يقول " فأي وجه من وجوه العالم وجهاته المضافة إليه بالخلق والتكوين نصبه وعينه فهو قبلة والمراد بالوجه القصد والنية مثل "وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض"

11 في كتاب اللباب في علوم الكتاب لابن عادل يقول " قوله تبارك وتعالى: { فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ } مشعر بالتخيير" ثم يعمل على تخصيص هذا التخيير بالسفر و ما شابه, هذا لا يهمنا, المهم انه أقر انها تشعر

بالتخيير.و يقرر قاعدة تقول " وإذا أمكن إجراء اللفظ العام على عمومه، فهو أولى من التخصيص" و يقول بأنه من "المحال أن يقول تعالى "فأينما تولوا" بحسب ميل أنفسكم "فثم وجه الله" بل لا بد من الاضمار" أي اضمار "فأينما تولوا –من الجهات المأمور بها– فثم وجه الله " و أما لماذا يفتعل ابن عادل هذا الاضمار بالرغم من ان الاية مطلقة؟ فجوابه الوحيد هو قوله "هذا الاضمار لابد منه على كل حال"! و يقول أيضا مفسرا الاية " معناه أن الجهات التي يصلي إليها أهل الملل من شرق وغرب، وما بينهما كلها لي، فمتى وجّه وجهه نحو شيء منها بأمر يريدني، ويبتغي طاعتي وجدني هناك أي وجد ثوابي. فكان هذا عذراً للنجاشي وأصحابه الذين ماتوا على استقبالهم المشرق"

12 في كتاب الدر المنثور للسيوطي ينقل حديث صححه الترمذي و ابن ماجة و خرجه ابن ابي شيبة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال "ما بين المشرق و المغرب قبلة" , و أيضا يروى عن ابن عمر مثله.

13 في كتاب روح المعاني للالوسي " المراد بـ (أينما) أي جهة، وبالوجه الذات"

14 في خواطر الشعراوي يقول "فثم وجه الله أي هناك وجه الله. و الله واسع عليم أي لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم, لأن الله واسع موجود في كل مكان في هذا الكون و في كل مكان خارج هذا الكون" و يقول كلمة مهمة جدا لم أجدها عند غيره في هذا البحث الى الان و هي كلمة حق فعلا " إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد في الصلاة.. وذلك دليل على وحدة الهدف"

15 في ظلال القرءان لسيد قطب يقول " وهي تقرر أن كل اتجاه قبلة، فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد. وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة، لا أن وجه الله - سبحانه - في جهة دون جهة. والله لا يضيق على عباده، ولا ينقصهم ثوابهم، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم. وفي الأمر سعة. والنية لله إن الله واسع عليم"

16 و في كتاب أيسر التفاسير لابي بكر الجزائري يقول " الله تعالى محيط بالكائنات فحيثما توجه العبد في صلاته فهو متوجه إلى الله تعالى، إلا أنه تعالى أمر بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة فمن عرف جهتها لا يجوز له أن يتجه إلا إليها"

و هذه هي الاراء الموجودة التي لها قيمة في هذا الباب. و أحسب أننا نقلنا ما يكفي. فتعالوا الان ننظر في الأمور و نوازن بينها و نرى الى ماذا نصل..

(الدراسة و النقد)

ان قضيتي التي أرافع عنها في هذا المقال واضحة و بسيطة و عميقة و هي هذه: الله كذات مطلق الوجود, و العبرة في التوجه اليه هي الارادة القلبية الباطنية فقط, و أي صنع لقبلة غير ذات الله هي صناعة لأصنام, و اذا قيل أن الله أمر بصناعة هذه القبلة فصاحب القول هو مشرك بالله افترى على الله الكذب.

فاذن نحن امام أربع ادعاءات, أو أفكار: الله مطلق, العبرة في العبادة هي للارادة, صنع القبلة الجسمانية صنع لصنم, الزعم بأن الله أمر بصنع قبلة ارضية محددة هو كذب عليه مهما كانت الغاية وراءها. فمن هذه الدعاوي الاربعة على كم وحدة يوافقنا عليها رجال التفسير و اهل الدين بصورة عامة؟

1 "الله مطلق الذات فهو في كل الجهات" . هذه يوافقون عليها. و لا يخالف في ذلك الا أهل التجسيم . و هم كفار في اعتبار جمهور المسلمين. و هم يخالفون صريح العرفان و القرءان "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن". جيد.

2 "العبرة في العبادة لتوجه القلب و الارادة" . هذه ايضا يوافقون عليها. فلا أحد يقول أن الذي يوجه وجهه نحو الحجر لذاته أنه يؤجر. و قول الله في المسألة محسوم "و اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة و العشي يريدون وجهه" . جيد.

3 "صنع القبلة الجسمانية صنع لصنم" . هذه لا يوافقون عليها و يوافقون عليها في ان واحد. و الفرق: انه عندما يتعلق الأمر بصنعهم هم للقبلة الحجرية (مثل الحجر الموجود في صحراء الجزيرة العربية) فانهم يعتبرون الأمر طاعة لله. و لكن عندما يصنع أهل الأديان الأخرى قبلة جسمانية (مثل الصليب أو التماثيل الهندية) فانهم يعتبرون هذا صناعة للاصنام. و ما لا يحبون أن يفهموه أو يعملوا بمقتضاه هو أنه لا يوجد أحد يصنع التماثيل و يزعم أن الاله المطلق قد حل فيها أو يزعم أنها لها قيمة بذاتها, هذا تسطيح سخيف لعقائد الاخرين, انما يبنون هذه التماثيل لتكون "قبلة" ظاهرية لهم يتوحدون عليها في صلواتهم, و كسبب لتركيز التوجه في الدعاء, أو كرموز تحوي علومهم و عقائدهم فبدل الكتابة على ورق هم يكتبون على حجر بالتصوير. و أئمة الاحزاب يقرون بأن تمثال الجزيرة العربية الأسود ليس له خصيصة بذاته و انما بجعل الله له قبلة (على حد قولهم) و يقرون أيضا كما بين الشعراوي مثلا أن هذا التمثال الأسود هو من أجل "توحيد المسلمين في صلاتهم" و كاية على "وحدة الهدف" و سنأتي على هذه الادعاءات لاحقا. فباختصار, اذا كانوا يدينون صناعة الأصنام فيجب أن يدينوا كل الأصنام. و الاصنام صنعت لتكون قبلة للتوجه الظاهري الجسماني. فالصنم صنم في كل مكان و زمان, و لا يوجد استثناءات و امتيازات.

4 "هل أمر الله باتخاذ صنم اي قبلة ظاهرية؟" هم يدعون ذلك. و هذا هو مربط الفرس. فهم يوافقون أن الله مطلق , و أن العبرة للتوجه بالارادة القلبية, و أن كل من يصنع قبلة جسمانية للصلاة يعتبر صانعا لصنم. حسنا, فمن مقتصى هذه الاعتقادات أن لا يكون في دين الله قبلة ظاهرية, أليس كذلك؟ بالنسبة لنا نعم. و لكن بالنسبة لهم هم يجعلون الله هو الذي يأمر باتخاذ القبلة الجسمانية الحجرية. و لولا أن الله أمر بذلك هم يقرون ان الأمر يكون باطلا و صنما ملعون من يتوجه اليه. و لذلك يتشددون في صنع التماثيل عامة و صنع التماثيل للتوجه اليها في الصلاة خاصة, و لذلك لا تجد ذلك في معابدهم, و كم عانينا و نعاني بسبب اتخاذ البعض لقبر ولي من الأولياء كقبلة و لو لمجرد الدعاء. فاذن, المشكلة عندهم ليست في صنع الصنم بحد ذاته, و لكن في كون الله لم يأمر باستقبال هذا الصنم. فالصنم اذا وافق الله عليه و أعطى الاذن بالتوجه اليه يصبح الصنم وجه الله! فهم لا ينازعون في الأفكار الثلاثة الأولى لا نظريا و لا عمليا. انما النزاع في كون الله أمر أم لم يأمر. فهل الله فعلا يأمر بمثل هذا العمل؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال تفصيليا, بالرغم من استطاعتنا بأن نجيب عليه بكلمتين و هي أن الله لا يأمر بالفحشاء و الشرك! لا, سنجيب جوابا تفصيليا يناسب أهمية ما نبحث فيه, أريد أن أثبت بعض من الملاحظات التي ذكرها أهل التفسير الذين نقلنا من اقوالهم, و أعلق على ما نرى ضرورة التعليق عليه.

أولا, نلاحظ أنهم أقروا بأن الله أعطى الاذن للمسلمين بالتوجه الى أي جهة يشاؤون .و هذا الاذن أعطي بمقتضى هذه الاية. و هذا هو ما نحن عليه لانه فعلا من مقتضيات الاية البينة. و لكنهم بعد ذلك خبطوا خبط عشواء في السعي الى رفع هذا الاذن الالهي العرفاني الحقيقي, فوجدناهم يدعون أن الاية ملغية (أو منسوخة بحسب التعبير الملطف) ثم قالوا أن الاية ناسخة, ثم قالوا أنها ليست ناسخة و لا منسوخة, ثم قالوا أنها منسوخة في بعض جزءياتها و غير منسوخة في البعض الاخر. و أحسب انه لو وجد احتمال منطقي اخر لتبنوه. فكل هذا التخبيط ناتج من عدم رغبتهم في اثبات الحقيقة العرفانية و ما سيترتب عليها من تدمير لصنمهم المحبوب و ما في ذلك من استقلال لاتباعهم. اذا وجدت تخبطا شديدا فاعلم أنه يوجد مكر شديد. و فكرة الالغاء أو النسخ هذه مرفوضة قطعا, و يكفي في اثبات بطلانها أنها تجعل العمل ببعض ايات الله باطل و كتاب الله عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه. ان كون الله في كل الجهات و أنه لا يقبل التوجه اليه الا من ارادة قلبية متوجه الى ذاته مباشرة "يريدون وجهه" هذا ليس حكم فقهي أو سياسي حتى ينسخ أو يتعامل معه من منطلق المصلحة و الرغبة في "توحيد المسلمين" على حد قول البعض. هذا أمر ديني عرفاني حقيقي لا مخرج منه و لا تجوز المساومة عليه و لا المداهنة فيه. اذا كنا سنتوجه الى غير ذات الله مباشرة فأي فرق بين المسلم و المشرك و الملحد؟! لا عبرة أصلا بالتوجه الظاهري, هم يقرون بهذا. حسنا, فماذا تبقى حتى تستند عليه عقيدة التمثال الأسود أو غيره؟

ثانيا, نلاحظ أنه في قصة النجاشي أن النجاشي لم يكن يصلي باتجاه التمثال الأسود بل "قبل المشرق" و لما سئل النبي عليه السلام عن ذلك استدل النبي بهذه الاية لاثبات أنه كان على حق طالما أن ارادته القلبية متوجه لله. و يتحدث المفسرون على لسان الله أنه يقول ما معناه "من توجه الى اي جهة يريد وجهي و طاعتي وجدني و ثوابي" و هذا عين الحق و العرفان. و بالمناسبة اني اذكر هذه القصة ليس لأن لها أي قيمة تاريخية عندي و لكن للعبرة منها و لكونهم يعتبرونها ,فهي من باب "و شهد شاهد من أهلها". فلما وجد المفسرون و الفقهاء هذه الرواية و مضمونها الخطير, أرادوا أن يخرجوا من هذه الورطة فاختلقوا سببا لكون النبي قد أعذر النجاشي في عدم استقباله للتمثال الأسود فقالوا ان النجاشي "لم يبلغه" ضرورة التوجه اليه. و هذا العذر هو مما قيل فيه "عذر أقبح من ذنب". فأي سر هذا في أن لا يعرف المسلم أنه عليه أن يتوجه للتمثال الأسود (لو كان حقا كما يقولون) في صلاته؟ لو كان النبي فعلا يرى ضرورة التوجه اليه لأخبر النجاشي, أو على الأقل لأخبر المسلمون المتواجدون في الحبشة النجاشي عندما أسلم. و هذا ليس بالأمر الكبير حتى لا يبلغوه به. بل اذا كان ضروريا لوجب عليهم أن يخبروه. بل انه هو ذاته كان من المتوقع منه أن يسألهم "يا جماعة الخير, اذا أردت أن أصلي فأي جهة أستقبل؟" و لكن الواقع أن المسلم الحقيقي لا يحتاج أن يسأل سؤلا سفيها مثل هذا, لان قبلة المسلم هي وجه الله فقط و هذا من الاوليات في دين عبادة الواحد الاحد. كما قال ابرهيم ابو ملة المسلمين"اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا و ما أنا من المشركين" و ان ابرهيم لا يحطم تمثال ليبني تمثال اخر!

ثالثا, أقروا بأن مما يوحي به ذكر اسم الواسع في هذه الاية أنه , " و الله واسع عليم أي لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم" و أن الله "يريد السعة لعباده و دينه يسر" و أن "في أمر القبلة سعة" و "السعة ضد الضيق" . و هذا كله رائع. فهم يقرون بأن كون كل جهة ظاهرية تعتبر قبلة لأن العبرة ليست بتوجه الجسم و لكن بتوجه نية القلب. و هذا كله رائع و راقي جدا. فلماذا اذن تراجعوا و نكسوا على رؤوسهم بعد ذلك و ادعوا أن الله ضيق على العباد و جعل التوجه الى حجرة معينة ضرورة اذا عرف الانسان موضعها؟ اني لم أسمع أبدا أن النسخ يقع على أسماء الله الحسنى كذلك!! ان كان واسعا و من مقتضى هذا الاسم الحسن لم يجعل العبرة للجهة الظاهرية , فان الادعاء بأنه غير رأيه -تعالى- و نسخ مقتضى هذا الاسم و حقيقته و جعل لنفسه اسم جديد هو "المضيق" و "المعسر" فهذا أمر غريب فعلا و لا أحسب أن مسلما أو عاقلا يتجرأ أن يقوله علنا, و لكنهم يقولونه بل و يعملون بمقتضاه فعلا يوميا من وراء حجاب و لف و دوران. التقيد بعقائد المذاهب يجعل العاقل العارف يقر بالحق و نقيضه في موضع واحد. فنحن نأخذ اقرارهم و اعترافهم, و ندع أوهامهم لهم ليحلوها أو يتراجعوا عنها.

رابعا, أقروا بأن الاية "فأينما تولوا فثم وجه الله" أنها " بل فيه ما يدل على أن الجهات كلها سواء في جواز التوجه إليها" و "تشعر بالتخيير". و ينقلون روايات ان النبي عليه السلام صلى فعلا و هو غير متوجه نحو "الكعبة". و ينقلون أيضا أن النبي احتج بهذه الاية على أن التوجه نحو اية جهة ظاهرية لا عبرة له انما العبرة للتوجه القلبي لله. و يقرون ايضا أن وجه الله يعني ذاته و قبلته و رضاه. و حسب البعض أن هذه المعاني الثلاثة متضاربة, و هذا غير صحيح, المعاني الثلاثة المحتملة لكلمة "وجه الله" متكاملة. فذات الله هي القبلة التي رضيها و يرضى عمن يتوجه

اليها. و لذلك قال لنبيه أن لا تعد عيناه عن الذين يتخذون هذه القبلة العالية "و لا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا".

خامسا, يقرون بأن "الكعبة (حسب تعريفهم الاسقاطي الخارجي) ليست قبلة لذاتها و لكن لأن الله جعلها قبلة" و من ناحية اخرى يقرون بأن العبرة الحقيقية هي للنية و القصد الباطني و التوجه القلبي الى الله. هذا تناقض غير مقبول. الله هو القبلة الوحيدة. و كتاب الله لا يختلف بعضه مع بعض, بل يصدق بعضه بعضا, و يشهد بعضه لبعض. فكان الواجب العلمي عليهم هو أن يقولوا: بما أن الله أمرنا أن نتوجه الى ذاته فقط و تكون هي قبلتنا الوحيد, فاذن يجب أن نبحث عن معنى اخر لبيت الله الحرام و الكعبة بحيث لا يكون المعنى هو هذا المبنى الظاهري الذي يبنيه البشر. و لو فعلوا هذا لدخلوا الأرض المقدسة! و لعرفوا أن بيت الله الحرام ليس مكانا جسمانيا, و لكنه أمر باطني و أفكار ربانية. الحرمات الأحد عشر هي المسجد الحرام "قل تعالوا اتلوا ما حرم ربكم". و لذلك لما أراد أحد العارفين أن يرد على الذين يزعمون (بدافع المصالح الدنيوية طبعا) أن المسجد الحرام هو هذا البناء الموجود في صحراء الجزيرة , قال لهم: ان الله يقول عن بيته الحرام "و من دخله كان ءامنا" فهل كان الذين دخلوه ءامنين يوم دخله عبد الله بن الزبير و قتله الحجاج الثقفي و صلبة فيه؟ هل كان ءامنا يوم هجم جهيمان و جنوده و قتلوا الناس فيه؟. ان من ايات الكتاب حاكم و محكوم, فالاية المحكمة (اي التي يجب أن نرجع اليها لتحكم لنا) هي التي تدلنا على معاني الاية المتشابه (اي التي تحوي أكثر من معنى محتمل متضاربين أو متضاربين مع ايات اخرى) فمثلا في سياق بحثنا هذا, فان كون الله "الأول و الاخر و الظهر و الباطن" و "فأينما تولوا فثم وجه الله" و "يريدون وجهه" و "لا تشركوا به شيئا" و "فراغ الى الهتهم ضربا باليمين" هذه الايات تمثل قضاة المحكمة, لانها ايات تكشف عن الحقائق بذاتها, فكون الله مطلق الذات حقيقة واقعية , و ليست أمر فقهي أو سياسي حتى يناقش فيها من منطلق المصلحة و "توحيد المسلمين" على حد تخيل البعض. و كون الدين و العبادة المرضية هي التوجه القلبي الارادي الى وجه الله هو حقيقية أساسية و قاعدة لهذا الدين. فهذه ليست من الأمور التي تناقش و يتفاوض فيها بين أهل هذا الدين, اذ لا يعتبر من أهل هذا الدين من يناقش في كون العبادة الخالصة هي التوجه القلبي الارادي الى ذات الله وحده. نعم ان كان من خارج الدين فيحق له أن يناقش فيها. فهذه الايات محكمة, و الايات الأخرى التي قد تشير الى اتخاذ قبلة اخرى مثل قوله "فول وجهك شطر المسجد الحرام" فانها محكومة بمقتضى الايات الاولى. و اذا فعلنا هذا فانه سيتبين أن "المسجد الحرام" يدل على أمور معنوية, مثل الحرمات التي وصانا الله بحفظها. و هذا من قواعد دراسة القرءان التي تكشف السبيل الأمثل لتناسقه و تناغمه و عمقه. و اما اذا غفلنا عن هذه القاعدة, كما يفعل أئمة الفرق, فان النتيجة هي أن يضرب بعض القرءان ببعضه الاخر, و أن تلغى أو تنسخ بعض الايات لصالح بعض, و في حالات عجيبة مثل حالتنا هذه فان الاية تصبح على احد الاراء ناسخة و في رأي اخر منسوخة و في راي ثالث لا ناسخة و لا منسوخة, و في راي رابع بعضها منسوخ فقط! و لا قوة الا بالله. تسمعهم ليل نهار يقولون و يصيحون بان القرءان كله متناسق و متناغم و يصدق بعضه بعضا و يشهد بعضه لبعض, و لكن اذا جاءوا الى القرءان نشروا سلاحهم الخبيث, اي النسخ, فكلما وجدوا ما يتخيلونه تعارضا (او يقصدون ان يجعلوه تعارضا) قالوا ان احدى الايات المتعارضة منسوخة. فاي قيمة لقولهم ان القرءان متناسق؟ بوجود الية و سلاح النسخ فان كل الكتب البشرية ايضا تكون متناغمة و "اعجازية" في تناسقها و تصديق بعضها لبعض, كل ما عليهم ان يفعلوه اذا اكتشف احد تناقضا و اختلافا بين افكار الكتاب هو ان يدفعوا عن الكتاب

بقولهم ان احدى الافكار منسوخة و الحمد لله. الاحزاب مثل الشعراء: يقولون ما لا يفعلون, قولهم ان القرءان متناسق, و لكن فعلهم كله يدل على ان القرءان مختلف متنابذ متضارب, و كل ما عليهم لرفع هذا التضارب و الاختلاف هو استعمال معول النسخ لهدم احدى الايات (و عندهم اسلحة اخرى مثل اسباب النزول و غير ذلك و لسنا هنا بصدد شرح هذه الامور) و هذه الاية التي نحن بصددها خير مثال على هذا, و يا كثر الامثلة- مع الاسف الشديد.

سادسا, في كل التفاسير السنية و الشيعية التي اطلعت عليها لم أجد أحدهم قد ذكر أن العلة من اتخاذ التمثال الأسود كقبلة ظاهرية هو لتوحيد المسلمين و أنه دلالة على وحده الهدف, و لكن كما رأينا فان الشعراوي هو الذي صرح بذلك. قد يكون من الأقدمين من ذكر ذلك, الا أنني لم أجده. على أية حال, أحسب أن الشعراوي في تعليله هذا لم يكن موفقا البتة. و هو معذور اذ الخواطر شيء و الدراسة الجدية شيئ اخر. أي مسلمين نحن اذا كان حجر هو سبب توحيدنا و توحيد هدفنا ؟!! اذا كان الله لا يكفي لتوحيدنا و اذا كان القرءان لا يكفي لتوحيدنا و التأليف بين قلوبنا فكيف نجرؤ أصلا أن نزعم أننا مسلمين؟ "لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم" الله كذات و الله ككتاب "فبأي حديث بعد الله و ءايته يؤمنون". ثم هل توحد المسلمين أصلا بسبب هذا الحجر؟ ألستم ترون كل انواع الفرق الاسلامية أو أغلبها يتخذون هذا الحجر كقبلة لهم و مع ذلك يكفر بعضهم بعضا, و يلعن بعضهم بعضا, و يقتل بعضهم و بعضا؟ أي توحيد هذا. أتونا باية واحدة ترشد الى اتخاذ حجر أو أي شيء ظاهري ميت ليكون سبيلا للتوحيد بين الناس؟ ها هي الاية الكبرى في هذا المجال تقول ببيان تام "لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم" . ان ما يفعله بعض الائمة كالشعراوي و غيره ليس اسمه "تعليل" و لكن "تبرير" و الفرق بينهما كبير. التبرير هو القبول بالشئ مسبقا لأسباب معينة, خفية , نفعية, لاشعورية غالبا, ثم السعي الى اثبات أن العقل و الدين و الحقيقة المجردة المنزهة عن الاغراض هي التي تدعم هذا الشئ و على أساسه بنيت. و أما التعليل فهو بحث يبدأ من الأسباب الموجبة للوصول الى عقيدة معينة او سلوك معين. فالتبرير يبدأ من الارض و يصعد الى السماء, و أما التعليل فيبدأ من الأسباب و ينزل الى الأرض. و من زاوية اخرى, فان الفرق بين التبرير و التعليل هو كالفرق بين علم الكلام و الفلسفة, ففي علم الكلام العقائد المقبولة مفروغ منها و مسلم بها, و على هذا العلم (و أحسب أنه من غير العدل أن نسميه علم) أن يجد المبررات و يلوي عنق الأشياء لترضخ للعقائد و "تثبت" صحتها. و أما في الفلسفة (بالمعنى الراقي) فان الفيلسوف لا يبالي الى أين يصل اذ انه لا يلتزم لأي عقيدة معينة, على الأقل على المستوى الواعي. على أية حال, فان اتخاذ شيء جسماني, خاصة حجرة, ليكون وسيلة لتوحيد المسلمين هو ليس فقط غير نافع و غير واقعي بل انه يتقاطع مع أهم تعاليم القرءان تقاطعا لا يوجد سبيل للخروج منه الا بالطمس و التغافل و اعمال مبضع "النسخ" في الايات المحكمة الحقيقية. "الله" لا أقول هو وسيلة توحيد المسلمين, الله ليس وسيلة, هو الغاية, و على هذه الغاية يلتقي المسلمين المخلصين. "الله ألف بينهم". و ان لم نستطع ان نفهم و نعمل بهذه الحقيقة فالسلام علينا.

سابعا, ينقلون عن النبي انه قال "ما بين المشرق و المغرب قبلة" و أيضا "جعلت لي الأرض مسجدا" . ليس عندي تعليق, الا أن هذين الكلمتين يدلان على أنهما قد صدرا من عالم بالله و كتابه. و اني لأعجب من وجود مثل هذا

الكلام بين أناس يتوجهون لحجر و يجعلون للحجارة اعتبار من أي نوع للعبادة. ماذا نفعل بعد هذا؟! اذا أتيناهم بالعرفان قالوا زندقة, اذا أتيناهم بالقرءان قالوا نريد السنة, اذا اتيناهم بالسنة لا أعلم ماذا سيقولون بعد. من يدري لعل هذا الكلام منسوخ أو مخصص أو معمم أو منكوس على راسه! اني أحب أن أرى مصداق كلام الله امامي, و لكني أخاف عندما أراه يصدق على اخواني, ألا يكون هؤلاء من الذين "ان تأتيهم بكل اية لا يؤمنوا بها"؟ أرجو أن أكون مخطئا.

ثامنا, من الوسائل التي تستطيع أن تستخرج بها الحقيقة من شخص يخبئها أو يتحفظ عليها هي أن تاتيه بحجة أو شبهة معينة تجعله يضطر الى أن يكشف الحق الذي يكتمه أو سيضطر الى أن يتنازل عن حق اخر يعتقده و لا يستطيع أن يتخلى عنه. و هذا ما حصل مع ابن عرفة صاحب التفسير الذي ذكرناه في الفقرة (9) من تفاسير السنة. فانه أقر بأن لفظة "ثم" في قوله "فأينما تولوا فثم وجه الله" باقرار عظيم. قال أنه يدل على أنه " يقتضي وجوده (الله) في المكان الذي يقع فيه التولي حقيقة" و هذا من اوليات العرفان و القرءان. فان الله "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن" فهو في كل مكان و أعلى من كل مكان. فاذن, و كما يقر ابن عرفة و غيره, الله موجود حقيقة في أي مكان تتوجه اليه. و أما ما يذكره البعض من ان "الله بائن من خلقه و خلو منه, و خلقه بائنين منه و خلو منه" فانه كلام غير مسؤول و مدفوع بأغراض أخرى غير العلم و العرفان. اذ ان أول أعتراض على هؤلاء هو: هذه البينونة بين الله و خلقه متى تكونت؟ قبل الخلق كان الله وحده , و الان بعد ان خلق أصبحت هناك بينونة أو مسافة بينه و بين خلقه, فأين خلق الخلق اذن؟ لا تستطيع أن تقول انه خلقه "خارجه" اذ لا يوجد غيره في تلك الحالة, و لا تستطيع أن تقول أنه خلقه "داخله" اذ هو ليس من اجزاء حتى يكون فيه داخل و فراغ. فاذن الله و خلقه واحد. و أقرب ما يمكن تقريب هذه الوحدة اليه هو العلاقة بين الانسان و خياله. فخيالك موجود فيك و ليس موجود فيك, هو أنت و هو ليس أنت, و أينما يولي مخلوقات خيالك فثم ذاتك أنت اذ لولاك لما وجدوا أصلا, و هم مفتقرين الى امدادك و فيضك الوجودي لحظة بلحظة و لو تركتهم لحظة لفنوا عن اخرهم. و من هنا قلنا على وجه التقريب "محل الخلق من الرحمن كمحل الخيال من الانسن". و من تناقضات القوم الغريبة هي أنهم يقولون أن الله منفصل عن خلقه, و مع ذلك يكفرون من يقول بأن الله محدود الذات! أيها السخيف, ان المنفصل عن الشئ لابد أن يكون محدود, و هل الانفصال الا وجود حد بين شيئين(و لو كان حد معنوي مثل فكرة الوجود و الامكان الفلسفية) . فاذا كان الله مطلق الذات فاذن لا يمكن أصلا أن ينفصل عن شيء. و اذا كان الله منفصلا فهو محدود. و جمعكم بين المقولتين هو دليل على أن سبب مقولتكم ليس سببا علميا أو عرفانيا أو قرءانيا,و انما مصالح أخرى. فمثلا, قد نجد من الشيعة الامامية من يجعلون الله منفصلا عن خلقه, و يروون عن ائمتهم مثل هذه المرويات, فاذا علمنا أن هذه الفكرة لا تقوم على أي برهان أو عيان, بقي أن نتوقع مصلحة أخرى هي التي دفعت الى هذا. و دارس عقائد الامامية حول الأئمة و دارس أقوال الأئمة سيرى أن الأئمة العلويين كانوا يعرضون أنفسهم على أنهم "مظاهر الله" و وسائط بين الله و خلقه. و لتستقيم هذه العقيدة يجب أن يكون الله محدودا منفصلا محتجبا بائنا من خلقه. اذ عندها يمكن أن يتخذ الله لنفسه "مظاهر" و أما الاعتقاد بأن الله هو "الظاهر" بذاته , فانه سيجعلنا نقول للامام العلوي: ان الله لم ينفصل و يختفي حتى يظهر نفسه بك! و عندها لن يحير جوابا. ان ذات الله تدمر الأصنام. و لذلك لما قال أبرهيم "اني وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض" فانه بهذا دمر كل الأصنام فعلا, و كل الأصنام الأتية. و لكن العجب أن الأحزاب ينسبون الى ابرهيم صنع صنم! "و اجنبني و بني أن

نعبد الأصنام" آآه يا ابرهيم, لو كنت تعلم أن من أتباعك (بالاسم فقط) سيجعلونك أنت باني أصنام لكنت أضفت الى دعائك "و امنع الناس ان تنسب لي صنع الأصنام".

تاسعا, اذا كانوا فعلا يؤمنون بأن هذا الحجر او "الكعبة" ليس له قيمة ذاتية (كما يقولون) فهل سيقبلون بأن نحول المكعب الى مثلث مثلا؟ أدع هذا لهم.

عاشرا, ان العالم الذي يقول "جعلت لي الأرض مسجدا" و "ما بين المشرق و المغرب قبلة" فانه اذا قال "ما امرت بتشييد المساجد" لا يكون يقصد "زخرفة المساجد" كما يروى عن ابن عباس. ان التشييد معروف في اللسان العربي, و قد فسره المفسر نفسه عندما قال " التشييد رفع البناء و تطويله" فالتشييد شيء و الزخرفة شيء اخر. و العربي الفصيح بل العامي لا يخلط بين الأمرين. فلو صح ما نقل عن ابن عباس فانه لا يعتبر تفسيرا لكلمة النبي و انما تحريفا سافرا لها. و الغريب أن أن المفسر لم يعلق على تحريف ابن عباس هذا خاصة بعد أن بين أن التشييد هو رفع البناء و تطويله. و بين أن للزخرفة معنى اخر. و هذا ما يحصل عندما يخشى المفكر من نقد مفكر اخر. ان دين الله لا معبد جسماني له. و ما أحسن و أعمق ما ذكره الجنابذري صاحب بيان السعادة في قوله الراقي" فالمساجد حقيقة والبيوت الّتى أذن الله ان ترفع :هى الصّدور والقلوب المنشرحة المستنيرة" ان هذا الدين ليس دين رجل "ما محمد الا رسول" و ليس دين معابد جسمانية "فأينما تولوا فثم وجه الله" هذا الدين دين الله, من ذات الله و بذات الله و الى ذات الله. و محل هذا الدين هو قلب الانسان. و القرءان العربي وسيلة ذكر و فكر أعطيت لنا كرحمة تيسر علينا الوصول الى المعرفة, و لكن مع ذلك, فان القرءان الحق المتعالي هو كتاب المؤمنين, و ما القرءان العربي الا نسخة مترجمة من ذلك الكتاب. "و انه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم". و للأسف, فان هذه الجوهرة الالهية قد مسخها أئمة الاحزاب, فحولوا الدين الى دين يعتمد على رجال معينين, رسل و أئمة و شيوخ, و حولوا العبادة الى مواقع جسمانية و تماثيل حجرية و مقابر للأموات. فماذا نفعل مع الذين يرفضون العرفان و القرءان و كذلك يرفضون أحاديثهم و مروياتهم اذا خالفت ما يرغبون في أن يجعلوه عين الحق؟ "فبأي حديث بعد الله و ءايته يؤمنون" .

أريد أن أعلق على ثلاث قصص ذكرها أئمة التفسير من الاحزاب حول هذه الاية, و قد جعلوا هذه القصص كأسباب لنزول هذه الاية. و كما قلت من قبل , اني لا أذكر هذه القصص لأني أصدق بوقوعها فعلا, و لا أني أقر أصلا وجود شئ اسمه سبب نزول بالطريقة التي يستعملها هؤلاء. و انما أذكرها لأني أرى أنها تؤيد ما نقول, و تشهد على أصحابها, و لأبين ما فيها من علم أو تعارض بحسب استطاعتي.

الرواية الأولى تقول أن الصحابة كانوا يصلون في احدى الليالي و هم في سفر مع النبي عليه السلام و بسبب العتمة لم يستطيعوا أن يحددوا موقع الكعبة, فصلو الى جهات ثم تبين لهم بعد طلوع الشمس أنهم قد اخطأوا التقدير فلما سألوا النبي عن صلاتهم هل صحت أم لم تصح أم ماذا يفعلوا أقرهم النبي على صلاتهم و استشهد بقوله تعالى "فأينما تولوا فثم وجه الله". ان استشهاد النبي هذا يدل على أنه لا يؤمن بقبلة جسمانية, اذ لو كان يؤمن

بها فعلا لما استشهد بهذه الاية, و لكن لاستدل بقوله تعالى "لا يكلف الله نفسا الا وسعها" , اذ ان معرفة مكان المكعب هذا في تلك الظروف هو فوق استطاعتهم, فاذا استدل النبي بقوله "لا يكلف الله نفسا الا وسعها" لدل هذا على أنه يقر بالقبلة الجسمانية, و لكنهم معذورين في صلاتهم هذه اذ ان استقبالها كان فوق استطاعتهم. و لكن الرواية لا تقول هذا. ان الرجل الذي يسأله اتباعه مثل ما سئل النبي في هذه الرواية, و يستدل الرجل بقوله "فأينما تولوا فثم وجه الله" ان هذا الرجل لا يرى قيمة للتماثيل الارضية. فمثلا, اذا جاءني شاب و صلى الى جهة ما, ثم سألني: اني لم أصلى الى جهة معينة, فهل تقبل صلاتي؟ فان جوابي سيكون كما قال النبي "فأينما تولوا فثم وجه الله". نعم, ان سؤالهم له قرينة على أنهم كانوا مأمورين بالاتجاه الى قبلة جسمانية, و لكنها قرينة بسيطة تعارضها قرائن بل ثوابت كثيرة. و اذا رجعنا الى مصادر أهل الحديث و السيرة النبوية, سنرى أن النبي كان لا يحمل الناس فوق طاقتهم من أمور المعرفة, فمثلا, يروى أن النبي أراد أن يهدم الكعبة هذه و يعيد تصميمها حتى يمر الناس من احد أبوابها و يخرجوا من الباب الاخر, و قد عرفنا سر هذا و هو أنه أراد أن يزيل هيبة هذا الحجر من قلوب الناس الذين كانوا يعتقدون (و لا زالوا للأسف) أن له قيمة الهية. و لكن النبي لم ينفذ رغبته هذه, و سبب ذلك كما يروى عنه "لولا أنهم حديثو عهد بجاهلية" . فمن المفهوم أن يكون النبي في ذلك الزمان قد أقر الناس على التوجه الى المكعب في صلاتهم, فالتدرج في الترقي العرفاني سبب كاف للابقاء على هذا الأمر. و من ناحية اخرى قد يكون له سبب سياسي و هو أنه أراد أن يبقي الناس نظرهم على فكرة فتح مكة, فيكون دوام نظر المسلمين الى تلك البقعة هو كمثل الصقر الذي يطيل النظر في الأرض حتى يرى اللحظة المناسبة لينقض على فريسته. على أية حال, كثير من هذا رجم بالغيب و اتباع للقرائن التي لا تخلو من ظن, بل ان فيها طعن في النبي و اتهامه بالمداهنة الدينية التي منعه الله ان يفعلها, فابرهيم لم يداهن احد في امور الوحدة الالهية, و ما محمد الا ابن لابرهيم و متبع له. الا أن المهم هو أن استشهاد النبي بهذه الاية في هذا المقام, دليل على أنه لا يرى قيمة للقبلة الجسمانية.

الرواية الثانية تقول أن الله قد خير المسلمين بالتوجه حيث يشاؤون جسمانيا, و لكن النبي اختار أن يتوجه نحو فلسطين (بيت المقدس) قبلة العبرانيين (اليهود) و يظهر ان الصحابة قد اتبعوا النبي في هذا (نبي السيرة طبعا ويوجد فرق بينه و بين نبي القرءان), ثم بعد ان سخر اليهود من النبي و اتباعه من انهم "لم يهتدوا حتى هديناهم" فان الله نسخ حكم التوجه نحو فلسطين, و أمر بالتوجه نحو الكعبة في مكة. هذا مضمون هذه الرواية. أقول: ويل لمن كذب هذا الكذب القبيح! بسبب أمثال هذه الروايات و مضمونها فان دين الله أصبح عرضة للسخرية و الطعن في أنحاء العالم. أولا, الحمد لله أنهم أقروا أن الله خير المسلم بالتوجه حيث يشاء ظاهريا. لماذا يتوجه نبي الله الى قبلة العبرانيين؟ ثم ان هذا الربط الغريب بين سخرية اليهود و "انزال" الله للنسخ في القبلة هو من أكبر الادلة أن النبي هو الذي كان يفتعل "انزالات" الله! هل سخرية الناس من تعاليم الله تعني ان يغير الله رأيه و يأتي بأمر جديد؟! على هذا يجب أن ينسخ الله ألف تعليم و تعليم. ثم كيف يقولون ان الله أمر بالتوجه الى فلسطين أو بيت المقدس هذا؟ لقد نقلنا سابقا أن أحد أئمتهم قد أقر أن الله لم يأمر في القرءان أبدا بالتوجه الى بيت المقدس. و لذلك قال أن الأمر بالتوجه لبيت المقدس جاء في السنة, و نسخه القرءان. و من ناحية أخرى يقولون أن الله خير النبي و المسلمين, و أن النبي هو الذي اختار التوجه الى بيت المقدس. هل الله الذي أمر أم النبي الذي اختار؟ مرة يقولون هذا و مرة يقولون هذا. فما المخرج؟ المخرج هو أن الله لم يامر بشئ و النبي هو الذي يفعل ما يشاء و ينسبه الى الله! و هذا الاستنتاج هو الوحيد المنطقي من هذه القصص الرقيعة في أعين أهل القرءان. ثم بعد ذلك يقال أن

سخرية اليهود بسبب توجه المسلمين الى قبلتهم- و هي سخرية مبررة خاصة لو كان "نبي" الله يهتدي بتعاليم هؤلاء و هو يدعي أن الله أوحى اليه أعظم كتاب في الوجود و في تبيان كل شئ- هذه السخرية هي التي جعلت الله أو النبي لا ندري على وجه الدقة, يغير رأيه و يجعل اتخاذ المكعب الحجري للجاهليين هو القبلة الجديدة, و لا أدري لو كان أهل الجاهلية من الأعراب قد سخروا من النبي على أنه تاب عن ردته و توجه الى حجارتهم, و زعموا أنه "لم يهتدي حتى هديناه" فهل كان الله سيغير رأيه للمرة الثالثة و ينسخ القبلة أيضا ؟ لعلهم لو فعلوا كنا سنرى قبلة الاحزاب الجديدة في معبد البوذيين في نيبال!

الرواية الثالثة هي التي علقنا عليها سابقا و هي قصة النجاشي ملك الحبشة الذي أمر النبي أصحابه بان يصلوا عليه, فاعترض الاصحاب و قالوا "كيف نصلي عليه و هو لم يستقبل قبلتنا ؟" فرد عليهم النبي العليم "فأينما تولوا فثم وجه الله". فجواب النبي هو أن النجاشي المسلم كان يستقبل قبلتنا فعلا, اذ قبلتنا هي وجه الله لا غير. فسؤالهم نفسه مغلوط. هم ينظرون الى ظاهر الحيوة الدنيا, و النبي ينظر الى حقيقة الحياة العليا. و لا ننسى أن هؤلاء كانوا أهل جاهلية و أوثان, و من الصعب أن تغير وجهة نظر الانسان المعتاد على النظر الى الأجسام فتجعله يقتل نفسه القديمة, و ينبعث من جديد بعين تنظر الى حقيقة الروح. فالعتب ليس على أهل الجاهلية اذ لا ذنب لهم في كونهم اعتادوا على الاوثان, و العتب ليس على النبي في أنه قد يكون تساهل معهم في أوثانهم (و لا أحسب أن هذا حقيقة أبدا) و لكن العتب كل العتب على الذين يقرأون القرءان و لا يزالوا متعلقين بالاوثان. و عمل كهنة الاوثان هذا مفهوم, اذ تصور كم يكسبون كل سنة من دخل قدوم الناس اليهم للقيام بطقوس دينهم التي يسموها "الحج"! كما يقول ابرهيم مبينا شئ من أسباب تعلق الناس بالأوثان يقول " انما تعبدون من دون الله اوثنا و تخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق" و أيضا " قال انما اتخذتم من دون الله اوثنا مودة بينكم في الحيوة الدنيا" فالأوثان وسيلة الملأ الأعلى لكسب الرزق, و المودة في الحيوة الدنيا التي هي: اللعب و اللهو و الزينة و التفاخر و التكاثر في الأمول و الأولد. فأي واحدة من هذه الخمسة هي الحيوة الدنيا. و هذا الوثن الأسود وسيلة من أكبر وسائل التكاثر في الأمول. فالف حكمة عرفانية, و ألف اية قرءانية لن تجعل هؤلاء يرجعوا الى الله حقا, لان سبب خلقهم لهذه الاوثان ليس سبب عرفاني أو قرءاني (كما يزعمون) فهؤلاء من أبعد الناس عن الرموز و الاسرار, و انما هو سبب مالي دنيوي. فأمثال هذه المقالات لا تنفع مع هؤلاء. فعلاج الأثر يكون بعلاج السبب, فان لم يكن السبب فكري فالعلاج الفكري يكون هباء منثورا. الا ان الشياطين نفسها لا تقوم بعمل دنيوي الا باستدلال معرفي في الظاهر. فكهنة معبد المكعب الأسود اذا سألتهم عن سبب اتخاذهم لهذا الوثن سيقولون "وجدنا ءاباءنا" و لن يكتفوا بل سيزيدوا حجة أخرى "و الله أمرنا بها" . و هذه عادتهم و سنتهم. فلننتظر سنة الله فيهم. "و مكروا و مكر الله و الله خير المكرين".

و من الامور التي كرروها بدون اي دليل, كلا السنة و الشيعة, هوقولهم ان التوجه الى المكعب الحجري واجب في ما يسمونه صلاة الفريضة (الصلوات الخمس) و لكن يجوز عدم التوجه اليه في ما يسمونه صلاة النافلة (ما سوى الصلوات الخمس من تطوع). في محاولاتهم المستميتة لايجاد توفيق بين كل هذه الاراء و الروايات المتضاربة خرجوا علينا بهذا الراي. و لا دليل عليه اللهم الا قولهم المجرد, و لم لا, و لقد اعتادوا ان يقولوا ما يشاؤون و الناس تقول

"آمين" بعدهم و لهم. التوجه الى المكعب ان كانت له قيمة في ذاته و كان شرطا لحصول اتصال معين بالله تعالى فان الحق يقتضي ان يكون التوجه اليه دائما ضروري و شرط ما استطاع العابد اليه سبيلا, و ان لم يكن شرطا فهو ليس شرط في الفريضة و النافلة على السواء. و من اقراراتهم المهمة التي تخدم قضيتنا هو اقرارهم ان النبي الاول عليه السلام صلى لربه و هو مستدبر المكعب الحجري. فهذا اقرار منهم عليهم من باب "و شهد شاهد من اهلها" و لا يهمنا في شئ تفسيراتهم لهذا العمل, اذ اقرارهم لنا و تمحكاتهم و تخريجاتهم لهم. طبعا لاحظ ان كتاب الله ليس له نصيب يذكر في ابحاثهم و فقههم, اللهم الا نصيب الشريك الذليل المستضعف كما ذكرنا من قبل. و مسألة وجود صلاة فريضة و نافلة بهذه الطرق التي يقومون بها لا يخفى على اهل الله انها ليست من كتاب الله. و قد افردنا لمسألة الصلاة كتابا خاصا فلا نعيد هنا اللهم الا من باب الاشارة و التنبيه. فحكمهم هذا معيب من اوله الى اخره. و لا ادري اين ذهب اهل العلم فيهم, كيف يسكتون عن مثل هذه التجاوزات في دين الله, اليس منهم رجل رشيد.

و من اخر ما سمعته من المحاولات المستميتة لايجاد ذرة حكمة او عقل مستنير في التوجه الى المكعب الحجري في الصلاة هي محاولة من الدكتور الخطيب المفوه البارع عدنان ابراهيم. ففي خطبته التي سماها (علاقة المخ بالايمان) ذكر انه يبدو له ان الحكمة من التوجه الى المكعب الحجري ليس فقط حكمة اجتماعية سياسية (اي ان الهدف منها توحيد المسلمين في كل بقاع الارض كما ذكر الشعراوي مثلا و نقلناه قبل قليل و نقدناه) و انما للمسألة حكمة أخرى. و مثال تقريبي لرأي الدكتور هو الراديو الذي في السيارة. فأنت ان أردت أن تستقبل موجة معينة أو قناة موسيقية معينة, يجب أن تعدل تردد الراديو ليتناسب مع تردد القناة, فان كان تردد القناة رقمه 1010 , و كان مذياع السيارة (الراديو) مضبوط على تردد 909 فانه لن يستقبل الموجة المطلوبة, بالرغم من ان الموجة موجودة و لكن مذياعك غير متوجه لها, انه لا "يستقبلها", فان أردت ذلك فعليك أن تستقبل قبلة تلك الموجة فتضبط مذياعك على تردد 1010. و تأويل هذا المثل- كما هو رأي الدكتور عدنان- هو ان قلوبنا هي المذياع, و المكعب الحجري هو القبلة التي يبدو ان الله جعلها مركز نشر وحيه او ايحاءاته و تنزل نوره للناس, فالتوجه للمكعب هو مثل ضبط المذياع لتردد القناة التي ترغب في الاتصال بها. هذه هي خلاصة رأي عدنان ابراهيم كما فهمته منه. و الان أقول: الغريق يتمسك بقشة! طبعا فضلا عن أنه لايوجد أي برهان قرءاني أو عرفاني أو عقلاني (و الدكتور عدنان عقلاني, أو يحب أن يقول للناس أنه عقلاني الى أبعد الحدود) على هذا الكلام الانشائي الخطابي المجرد. اي مذياع و اي تردد يا أهل العقول المستنيرة! لو كان كما تقول لامتنع ان يتنزل اي خير من الله – ذو الخير المستفيض على الوجود كله و على "الكفار" ايضا الذي لا يتوجهون الى المكعب ليضبطوا مذياعهم على تردد الحجر الاسود- الا على من يتوجه الى المكعب الحجري. و نحن نسير على نفس المثال الذي ضربه الدكتور لتقريب رأيه, و هو ضرب مثال القمر الصناعي (الساتاليت) او (الدش- كما يعرف عند عوام الناس عندنا) و توجيه هذا الطبق الى القمر الصناعي, فالطبق هو قلوبنا و القمر الصناعي تأويله المكعب الحجري. و بصراحة ليس عندي نقد أكثر من هذا على اطروحة الدكتور الغريبة هذه, و كما هو معلوم لمن يدرس كثيرا و ينقد كثيرا: فان الرأي كلما كان سخيفا كلما صعب نقده.

و أخيرا أنقل رأي للشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي-رضوان الله عليه- يذكره في الفتوحات المكية, و أنا أنقل من كتاب الكبريت الأحمر للشعراني- رحمه الله- الذي لخّص فيه الفتوحات المكية. يقول الشيخ الاكبر في الباب التاسع و الستين من الفتوحات " لولا أن الاجماع سبقني, لم أقل أن التوجه الى الكعبة شرط في صحة الصلاة. لأن قوله تعالى " فأينما تولوا فثم وجه الله" نزلت بعد قوله " و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" فهي آية محكمة غير منسوخة, و لكن انعقد الاجماع على هذا و جاء قوله "فأينما تولوا فثم وجه الله" محكما في الحائر الذي جهل القبلة فيصلي حيث يغلب على ظنه باجتهاده بلا خلاف "

أقول: اذا تركنا التقية التي كان يمارسها و لا يزال العرفاء بالله بسبب تفرعن الطواغيت و الجماهير الجاهلة المتوحشة, و اذا تذكرنا ان الشيخ الأكبر رحمه الله نفسه يقول في الفتوحات في الباب الثامن و الستين " لا يجوز لأحد أن يصدق فيما يضر الناس" و معلوم ان رأيه كما هو رأي كثير غيره من العرفاء هو حجب العلم الحقيقي العميق عن الجماهير غالبا, فاننا سنضطر ان نحذف الجزء الذي يذكر فيه الاجماع المزعوم هذا, و بالتالي يكون كلام الشيخ الأكبر بعد ازالة ما كتبه للتقية هو هكذا " التوجه الى الكعبة ليس شرطا في صحة الصلاة. لان قوله تعالى "فأينما تولوا فثم وجه الله" نزل بعد قوله "و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" فهي اية محكمة غير منسوخة". و بغض النظر عن أن الشيخ هنا يفسر البيت بأنه هذا المكعب الحجري و قد فرغنا من نقد هذا التفسير او الاسقاط. و مع الاخذ بعين الاعتبار ان الشيخ الاكبر يحكم على ان اية "فأينما تولوا فثم وجه الله" محكمة غير منسوخة, فهذه شهادة تنفع ما ذهبنا اليه. و النتيجة الأقوى هي انه يحكم بأن التوجه الى المكعب ليس شرطا في صحة الصلاة. و هذا كاف شاف بالنسبة لي من كلامه هذا. و كل من يرى في ابن عربي عارفا عميقا يعرف قيمة كلامه هذا, و أما من يكفرونه – و هم التافهين دوما الذين حرمتهم عمايتهم و سواد قلوبهم من كنوز عظيمة تنزلت على قلب هذا الرجل العظيم- فلا حاجة لهم بهذه الفقرة فلينتقلوا الى ما بعدها.

تعالوا نأتي الى الان الى سؤال مهم: هل الله يحكم بالحق, أم أن كل ما يحكم به الله حق لأن الله حكم به؟ اذا عرفنا الفرق بين الأمرين و تبين لنا الجواب, فانه سيظهر لنا بكل وضوح ان كان الله يمكن أن يتصور منه أصلا أن يأمر باتخاذ قبلة جسمانية و ما عدى ذلك من أشباه هذه المسائل.

أصل المسألة هو هذا: هل للحق معيار من خارج الدين؟ و القضية التي أطرحها في هذا الشأن هي أن الحق يجب أن يكون معروفا أو يمكن أن يعرف بدون الدين. و لي على ذلك خمسة أدلة من القرءان و الواقع كلها تشهد على ذلك, و لعل واحد من هذه الخمسة يكفي بنفسه لاثبات القضية.

1 وجد الانسان قبل الأديان و انما أتى الدين الالهي بعد أن انحرف الناس. يقول الله "كان الناس امة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين" فقبل بعثة النبيين كان الناس موجودين و في مجتمعات و كانوا "أمة واحدة" , لعل الأديان هي من أكبر اسباب تفريق الناس في زمننا هذا و قبله, بالرغم من أن غاية الدين الالهي هي توحيد الناس بعلم و سلام. و كون الانسان وجد قبل الاديان هو أيضا قضية محسومة, اذ اننا اذا قبلنا ما يقوله خبراء التاريخ و

الاديان فان ما نعرفه ان الاديان المسماة "سماوية" لا يتجاوز عمرها 10 الاف سنة على أبعد تقدير, و الانسان موجود من قبل ذلك بكثير (و لا يخفى ان عدم معرفتنا الدقيقة باحوال الناس في الازمان الغابرة لا يقتضي بالضرورة انه لم يكن لهم دين, بل الارجح ان الدين وجد مع الانسان دوما, طبعا الدين بالمعنى الواسع). ثم ان من المجتمعات اليوم من يرفضون الدين الالهي و مع ذلك لهم معايير للحق و الشر. بل لعلهم أحفظ للحقوق من أتباع الأديان. فاذا كان رفض الله و الاخرة يعني انعدام الحق, فان مقتضى ذلك أن نرى الملحد غير أخلاقي دوما, و هذا غير صحيح, و كم من ملحد أو زنديق عند المتدينين و هو خير من ألف متدين ملتزم بالطقوس و خاضع للمؤسسة الدينية الرسمية التي هي ظل الاله على الأرض-حسب قولهم.

2 امكانية كتم النبي أو كذبه على الله. يقول الله "بلغ ما أنزل اليك من ربك و ان لم تفعل فما بلغت رسالته" و يقول "و لو تقول علينا بعض الأقاويل" و "و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا" و "فلا يكن في صدرك حرج منه" و كثير من الايات التي تشير الى أمر طبيعي و بديهي و هو أن الانسان مخير في فعله و التزامه بالتكاليف أيا كان مصدرها. نعم, ان التبريريون يرفضون مقتضى هذه الايات التي ذكرناها بحجة أن القضية الشرطية صحيحة و لو لم يصح مشروطها. نحن لا ننازع في مقتضى هذه القاعدة. فنحن لا نقول أن النبي كذب على الله أو كتم الوحي, بل انه من غير العلم أن يدعي أحد ذلك, اذ ما أدراك ما هي النسخة الأصلية للوحي حتى تعرف بالمقارنة ان كان النبي قد كتم شيئا أو بلغ كل شئ؟ ما نقوله هو أن النبي ليس رجل آلي خارق. و لكنه بشر مثله مثل كل البشر في الأصل, و تكليف الله موجه له كما هو موجه الى غيره بالأصل. فما تثبته الايات, و هو محل الشاهد منها, هو أن النبي ليس رجل آلي ينطق الله من خلاله, كمثل ميكروفون. و ان كانت هذه هي حقيقة الأمر, فاذن يوجد "احتمالية" أن النبي لم يبلغ كل شئ, أو حرف شئ. حتى لو لم تتحقق هذه الاحتمالية, ليس هذا محل الشاهد, الشاهد هو وجود الاحتمالية الناشئة من التكليف الاختياري الطوعي. و هو ما يقرره الله في هذه الايات. و ان كان الأمر كذلك, فاذن لا يمكن الاعتماد المطلق الغير مشروط على أي نص ديني فقط بحجة أنه نص ديني الهي, و لكن يجب أن يكون عندنا معيار للحق من خارج الدين, من الفطرة الانسانية ان شئت, لنعرف هل هذه الفكرة المعينة حق أم لا.

3 امكانية كتم أو كذب الرسول الغيبي (جبرائيل). نحن لا نعلم و لا نستطيع أن نشهد أن القرءان هو من "الله" الأعلى. فحتى لو قبلنا أن في القرءان ما يسمى اعجاز علمي و بلاغي و نفسي و اجتماعي, حتى اذا قبلنا بهذا و أغضضنا الطرف عن كل الانتقادات الوجيهة التي وجهت الى هذه الحجج, فانه حتى بعد التسليم بوجود هذا الاعجاز, فان أقصا ما يثبته هذا هو أن القرءان ليس من البشر. فقط. و كون القرءان ليس من البشر لا يعني انه من الله. قد يكون من الملائكة, قد يكون من الشياطين و الجن, قد يكون من الهة اخرى لا نعرف عنها شئ, قد يكون من كائنات فضائية أقوى من البشر. و هكذا احتمالات عدة. القرءان نفسه ذكر ما يعتبر كقرينة على هذه الحجة. فمثلا يذكر أن القرءان "ما تنزلت به الشياطين" , و يذكر أن الملائكة كثر جدا, و أنهم يمكن ان يتمثلوا بشرا سويا و يعطوا أوامر و يقوموا بمعجزات للبشر كمثل قصة مريم, و يذكر القرءان أنه "انه لقول رسول كريم" . فما أدرانا أن جبرئيل كذب و حرف رسالة الله؟ و هذا لا يعني بالضرورة أن جبرئيل كائن سئ. اذ الكذب يمكن أن يكون

عمل صالح اذا كان بنية صالحة مثل الكذب لاصلاح ذات البين. و قد يكون القرءان أو بعضه من عند أحد الملائكة و يكون قد تأول لنفسه حجة تأذن له بأن ينسب ما يصدر منه الى الله. و الله يذكر احتمالية أن يكفر الملائكة و يكذبون كما في قوله "و من يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم". على أية حال, طالما أننا لا نعرف و لا نشهد بأن القرءان صدر من الله رب العرش مباشرة, فان الكذب على الله أمر وارد و حاصل و مشهور. و لذلك لا يمكن أن نثق على عمى بأي كائن يدعي أن الله قال كذا أو كذا. و بالتالي فان معيار الحق لا يؤخذ من الدين لانه دين, و لكن نقبله من الدين لأن مصدر الحق هو أمر اخر من خارج الدين.

4 امكانية تحريف كتاب الله. على فرض أن جبرئيل أوصل الكتاب من الله الى النبي سالما تاما, و على فرض أن النبي أوصل الكتاب الينا سالما تاما. فانه لا تزال هناك امكانية تحريف الكتاب من قبل الاتباع. و القرءان نفسه يقر بذلك و أنه من الأمور المشهورة التي تقع في رسالات الله. بل اننا لنرى التحريف من قبل اتباع الأستاذ او الشيخ لكتب استاذهم و شيخهم. و حيث ان من سنت الله أن الاتباع يحرفون الكتب, و لن تجد لسنت الله تبديلا, و قد رأينا أثناء دراستنا للقرءان و ما يذكره الأحزاب أنهم حرفوا الكثير جدا فعلا في تعاليم القرءان. فان امكانية التحريف الظاهري و المعنوي موجودة و محتملة و يوجد قائلين بكل رأي من هذه الاراء, أي ان الكتاب تحرف فعلا (بالرغم من اني اعارض هذه الاراء, وانا لست هنا بصدد مناقشة وقوع التحريف, و لكن مجرد اثبات امكانيته) فعلى أية حال, فان وجود الامكانية, و عدم وجود طريقة للتحقق من كون هذه الاية المعينة تحرفت أم لا من ذات الكتاب, فان هذا يقتضي منا أن نجعل للحق معيارا أو نبحث عن معيار الحق من خارج الدين.

5 امكانية و انتشار الفهم المغلوط للكتاب. على فرض أن جبرئيل أمين, و أن محمد أمين, و أن اتباع محمد بلغوا الكتاب بأمانة تامة, فان امكانية الفهم المغلوط لكتاب الله تعني أنه يجب أن يكون لنا معيار للحق من خارج الكتاب كأساس. فالاية في نهاية المطاف كلمات عربية. و هذه الكلمات تحتمل عدة معاني و سياقات و درجات و تأويلات. و بغض النظر عن امكانية ايجاد منهج متوحد لفهم الكتاب بطريقة تكشف عن مراد الله, فان وجود احتمالية الفهم المغلوط, و عدم وجود امكانية الرجوع الى ذات الله مباشرة لنسأله ان كان يقصد من هذه الاية كذا أو كذا, فان هذين الأمرين يحتمان أن يكون المعنى المقبول للكتاب موافقا للحق بحسب العقل و الفطرة. و لا يوجد احتمال اخر. و النصوص يمكن أن تلوى أعناقها لتقول أي شيء. انظر مثلا ما فعلوه في هذه الاية التي ندرسها في هذا المقال لترى مصداق هذا, فان كان هذا هو ما فعلوه في اية واحدة, فما ظنك بباقي الستة الاف اية او يزيدون؟ و الحق يعرف بحسب ما يتحدث عنه مضمون القول. فمثلا, اذا كانت المقولة التي نبحث عن احقيتها هي مقولة متعلقة بعلم الجسم البشري فان معيار الحق هو أن تطابق واقع الجسم البشري, فلو جاء دين مثلا و قال أن للانسان أربع كلاوي بدل كليتين, فان هذا الكلام باطل. و كذلك اذا جاء دين يمنع صنع الاصنام, و يأمر بالتوجه مباشرة الى وجه الله بالقلب, فان تفسير أي تعليم في هذا الدين على أنه يشير الى صنع قبلة جسمانية هو باطل بغض النظر عن الادلة التي يسوقها هذا على فرض أن له أدلة, و هو ما تبين انه لا يوجد فعلا. و لذلك لما أراد الله أن يضع معيار الحق في الأحكام لم يقل أن كل أحكامه حق لانه هو أمر بها فقط, و لكن لان الحق هو "ما ينفع الناس". فاذا وجد أمر في القرءان غير نافع للناس في المجال الذي يتكلم عنه, أو وجد أمر أحسن منه فانه من مقتضى الفطرة و

الدين أيضا أن يترك أمر القرءان الى الأمر الأنفع. فمثلا, اذا افترضنا أن عدة المرأة المطلقة انما جعت بالأشهر حتى يتبين ان كانت حامل ام لا, فاننا اليوم نستطيع ان نكشف عن وجود الحمل من عدمه في مدة أقل من ذلك بكثير, و بالتالي تستغني المرأة عن الانتظار لاتمام العدة الشكلية البيروقراطية. و قس على ذلك أشباهه. فاحكام الله للناس متعلقة بنفع الناس فقط. و "لن ينال الله لحومها و لا دمائها" فان ثبت أن أمر اخر انفع فعلا, فيؤخذ الاخر في مجاله.

فاذن, كون الله مطلق الذات هو أمر حقيقي, و كون القرءان أرشد الى التوجه اليه مباشرة بالارادة القلبية هو أمر حقيقي و ثابت باتفاق. و كون الله لا يمكن أن يحكم الا بالحق, فاذن اتخاذ أي صورة من الصور الجسمانية كقبلة حصرية هو اتخاذ لصنم و هو مرفوض, و حتى اذا افترضنا أن الله فعلا أمر به, و هو ما لم يأمر به, فاننا يجب أن نرفض هذا الأمر وحيث ان الله لا يأمر الا بالحق و الخير و العرفان, فاننا سننسب الأمر ليس الى الله, و لكن الى كذب أحد الناقلين لهذا الكلام المنسوب زورا الى الله, أو سنكذب فهمنا لهذا الأمر.

و كون ظاهر النص- على فرض وجوده- يجب تأويله اذا خالف الحق الثابت يقينا, هو أمر معمول به بين العلماء المحققين. فمثلا الاية التي تقول "و جاء ربك" فانهم يؤلونها لتعني أنه "جاء أمر ربك". و كذلك كون الله "في السماء" يؤول بأن الله في السمو و الرفعة و ليس في حيز معين اسمه السماء, أي هذه التي فوقنا ظاهريا أو معنويا, اذ ان الله كذات مطلقة كان قبل خلق السماء, و لا يمكن أنه كان مطلقا ثم خلق السماء ثم جعل نفسه محدودا و سكن فيها, استحالة, اذا كان البحر لا يسع في كأس, فأنى لله أن تسعه السماوات و الأرض! جل و علا. و كذلك في الايات التي تخص الناس, مثلا قوله "أومن كان ميتا فأحييناه" فان الميت هنا ليس ميت الجسم حسب الظاهر و لكن ميت القلب باتفاق أهل العلم و الدارسين. بل انهم يقبلون بالتأويل و لو تعسفا و تحريفا بالرغم من ظهور الاية الى حد سافر, مثلا كون القرءان مفصل تفصيلا هذا ذكر مرات عديدة و مع ذلك لا يقبلونه بكليته و الى الان هم على الاعتقاد و العمل بأن القرءان مجمل و يفتقر الى السنة و غيرها لتفصله و تخصصه و ما اشبه. و أيضا كون الأنبياء بشر يذنبون و يخطئون هو أمر منشور في القرءان و يصدقه الواقع النفسي للبشر, و مع ذلك فان أئمة الاحزاب خاضوا في لجج رقيعة من اللف و الدوران من أجل أن يجعلوا الأنبياء أبطال خارقين الهيين منزهين, بالرغم من أن القرءان يخالف ذلك صراحة. و كثير جدا من ايات القرءان يصرفونها عن ظاهرها الصريح, أو يلوون عنقها, أو ينسخونها و يلغوها علنا, بحجة أن ظاهر الاية و صريحها يخالف مبدأ اخر ثابت في الدين, ولو كان هذا المبدأ الاخر هم صنعوه من خارج القرءان للوصول الى أمور يعلمها الله و الراسخون في العلم بالكيد و المكر. فاذن لا يأتي أحد و يسمعني صريخه بسبب أني أرفض وجود قبلة جسمانية بعد كل ما ذكرناه.

ان تفسير الامور بنظرية المؤامرة ليس دائما أمر خاطئ و هلوسة. بل اننا في كثير من الاحيان اذا لم نفسره بنظرية المؤامرة و المكر فان الاحتمال الاخر الوحيد هو تفسيره بنظرية الغباء الطاغي. و نحن نرى أن أئمة الدين ليسوا أغبياء. رجل يؤلف 100 كتاب و موسوعة لا يمكن أن يقال أنه غبي لهذا الحد.

تأمل في هذه الاية "فول وجهك شطر المسجد الحرام". لقد أمر الله بهذا الأمر نحو ثلاث أو أربع مرات, و يؤكد عليه "و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره" . أول تساؤل يعرض للدارس الذي لسبب ما أصبح يعتقد أن المسجد الحرام هو مبنى جسماني موجود في بقعة ما على الارض الجسمانية: كيف يؤكد الله على أمر عسير جدا مثل هذا خاصة منذ ذلك الزمان؟ ما أدراني أين يقع هذا المبنى؟ و حتى اذا كنت سأعرف فلماذا هذه المشقة و التضييق؟ و لا يوجد اجابة محترمة على هذه التساؤلات.

ثاني الملاحظات هو كلمة "وجوهكم" . ان الدارس للقرءان يعرف أن الوجه يقصد به الوجه القلبي, خاصة في مثل هذه المواضع. فمثلا, ابرهيم يقول "اني وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض" و هذا بعد أن يأس من التوجه الى السماء و أجرامها –اذا أخذنا بالفهم الظاهري. فحتى اذا قبلنا أن ابرهيم كان ينظر الى هذه السماء الجسمانية (و هو رأي ضعيف جدا نفصله في موضعه) فان المعنى الذي نصل اليه هو أن ابرهيم يأس من البحث عن قبلة ظاهرية فوصل الى الله المطلق. و كذلك كلمة "وجه" في قوله "بلى من أسلم وجهه لله و هو محسن" كيف تسلم وجه جسمك هذا لله؟ سخافة أليس كذلك. كذلك قوله "سيماهم في وجوههم من أثر السجود" كم من الساجدين على الأرض و المكثرين ايضا ممن لا تظهر هذه البقعة السوداء– المشوهة– على وجهه؟ و كم من مبقع مسود ممن لعله لا يساوي فلسا عند الله و المسلمين العلماء. فمثل هذه الملاحظات هي من الأوليات التي تظهر في قلب الدارس لهذه الايات. و يعرف منها أن المسجد الحرام ليس بناء جسماني.

و هل من المستغرب على اناس جعلوا "المسجد الأقصا" بناء جسماني في فلسطين, أن يجعلوا "المسجد الحرام"الذي هو أدنى منه درجة في صحراء الأعراب!

تامل في هذه الاية أيضا "جعل الله الكعبة البيت الحرام, قيما للناس و امنا" الاية تدل على أن "الكعبة" هي البيت الحرام. و لكن ما نراه من الأعراب هو أنهم يجعلون "الكعبة" جزء من البيت الحرام, و كل ما تتوفر الدواعي يوسعون البيت الحرام! و ليتهم أنفقوا هذه الأمول على أمور أهم من هذا. و من ناحية ثانية, ما علاقة "الكعبة" بهذا المكعب الحجري؟ ثم ما علاقة هذا المكعب و البناء الذي حوله بأن يكون "قيما للناس" و "أمنا"؟ و انتبه أنه لن يقل "قيما للمؤمنين" أو "للعرب" , و لكن "للناس". قلب الأمور كيف تشاء, فلن تجد امكانية لتحويل القرءان الى داعم للأصنام.

كلمة "بيت" هل هي شئ جسماني؟ " انما يريد الله ان يذهب عنكم الرجس أهل البيت" أرونا أين موقع هذا البيت الذي يتحدث عنه الله؟ عندما يقول نوح "رب اغفر لي و لولدي و لمن دخلي بيتي مؤمنا" هل يقصد من دخل بيته الجسماني ؟ أنتم تقولون أن الاسلام بني على خمس, و أنه كالبيت, أرونا أين موقع بناء الاسلام هذا؟ و هل "أشهد ان لا اله الا الله "ركن من نحاس أو حديد أو خشب؟

هل فهمت لماذا نحتاج ان ننسب عمل هؤلاء للمؤامرة المقصودة : لأننا نحبهم و نعلم أنهم ليسوا أغبياء و عمي الى هذه الدرجة. عندما ترى غباء فادحا فوق العادة يصدر من علماء فاعلم أنهم عبيد لمكر و سادة و كبراء أو هم السادة و الكبراء ذاتهم. على أية حال, مؤامرة أو غباء لا فرق كبير بينهما, المهم أن الأمر قد ظهر.

فاذن لنختم هذا البحث مبدئيا: ان التوجه القلبي لذات الله العظيم اللامتناهي هو القبلة الوحيدة التي يرضاها الله و يرضاها العارف المحقق.

"لله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله وسع عليم"

(فرضية تفسيرية)

في ضوء ما سبق, و بعد أن عرفنا أنه ليس لله تعالى شأن مباشر بهذا البيت الحجري كما يقال. فما هي حقيقة هذا البيت اذن و ما قصته و ما أصله؟

يجب أن نسجّل في بادئ الأمر اننا الان لسنا بصدد بحث قرءاني أو عرفاني, فقد خرجنا من هذا النطاق, و دخلنا في نطاق البحث التاريخي. و معلوم ان البحث التاريخي ليس فيه الا الظن الجيد في أقصا الأحوال النادرة, و الوهم المحقق في معظم الاحوال. و بالتالي كل ما سنذكره هو من باب الفرضيات التفسيرية, بمعنى أنه توجد عندنا ظواهر معينة ثابتة الى حد ما تاريخيا, و نحتاج الى فرضية تفسيرية لكي تبين لنا و تربط لنا بين هذه الظواهر, و أقوى الفرضيات أكثرها تبيينا و تفسيرا و تنويرا.

و في موضوع هذا البيت المكعب, يصعب الأمر اكثر من عامة البحوث التاريخية, و ذلك لأسباب: منها أن الموضوع له دخل بالتجارة و الأموال, فوجود هذا البيت هو مصدر الدخل الرئيسي لسكان مكة و معلوم مقدار الاموال الطائلة التي يدرها وجود هذا البيت عليهم, و بالتالي من المتوقع جدا بل لعله متيقن في ظل معرفتنا بطبيعة الناس عموما و أصحاب الأموال خصوصا, من المتوقع أن يسعى هؤلاء الى كتم و قتل و التعتيم على كل ما من شأنه أن يكشف حقيقة هذا البيت, اي حقيقة مصدر دخلهم او أحد أهم مصادر دخلهم. و منها أن الموضوع له دخل بالسياسة و الامتيازات المعنوية, فسدنة و حراس هذا البيت كانوا و لا تزال لهم مكانة خاصة في قلوب عموم الناس و كان كونهم "أهل بيت الله" سببا لعدم تعرض القبائل الاعرابية لقوافل سادة مكة في السابق, و اما اليوم فظاهر مقدار القيمة السياسية و المعنوية التي يسبغها هذا البيت على سدنته و حراسه و خدامه فملك المملكة العربية السعودية يسمي نفسه "خادم الحرمين الشريفين" و هذا اللقب ليس من ابتداعه بالمناسبة و انما تلقب به بعض سلاطين الدولة العثمانية العلية من قبل.و من ناحية ثالثة توجد السلطة الدينية "المشركة" في السابق (و أنا الان أتكلم بلسان القوم و ليس بالضرورة اني اعتقد صحة هذه الأمور, فما لا أثبت صحته لا أعتقده) و السلطة الدينية "الاسلامية" بعد ذلك, و هؤلاء مركز دينهم و قبلة صلاتهم و فرض حجهم هو التوجه الى هذا البيت و ما حوله و القيام بطقوسهم أو "شعائرهم و مناسكهم" هناك كما هو معروف, فسقوط قيمة هذا البيت الحجري يعني كثير من الأمور و له الكثير من التوابع الخطيرة جدا و التي منها تغيير أحكام شرعية كثيرة مثل مسألة القبلة في الصلاة, و مثل فرض الحج كله, و هذان من "أركان الاسلام" في الغالب الاعم من الفرق الاسلامية بل في كل الفرق الاسلامية الكبرى اي الشيعة و السنة و من يسمون بالخوارج, فسقوط هذا البيت يعني سقوط ركنان من أركان الاسلام و الذي يعني انهدام اسلامهم لان البناء لا يقوم اذا فقد ركن من أركانه فضلا عن ركنين من أركانه. فاذن بالرغم من الصعوبة الطبيعية التي تواجه البحوث التاريخية, فان صعوبة البحث في حقيقة هذه الكعبة تاريخيا هو اصعب و أصعب و أصعب من كل البحوث الاخرى, لان كل الاسباب الممكنة لكتم و اخفاء الحقائق التاريخية قد اجتمعت في موضوع هذه الكعبة, بل توافرت على أشدها. فمجرد الرغبة في السعي لوضع فرضية تفسيرية تستند على شئ من العقلانية هو سعي فيه مجازفة كبيرة بل لعله ضرب من الوهم. و لكن مع ذلك فاننا سنسعى لذلك و لنرى الى أين نصل, و على أية حال فاننا لن نخسر شيئا في سعينا هذا, لان حقيقة الأمر قد تبينت كما كتبنا في فصول هذا الكتاب و

غيره, فنحن اما أن نكسب معلومة جديدة أو نكون قد كسبنا معلومات متفرقة خلال هذا السعي. فلا يوجد خسارة في هذا السعي. فقد نعتبره نوع من الفضول المعرفي في أقل الأحوال. فتعالوا ننظر.

يوجد البيت, و كان يوجد أصنام منصوبة حوله بعدد القبائل العربية, و كل سنة يأتي من يستطيع و يقصد هذا البيت, و عندما يأتي الناس في الحج يقومون بطقوس او شعائر "رمزية" (كما يعتقد العلماء عموما) او شعائر غير مفهومة و مطلوبة لذاتها أي "تعبدية" كما يسمونها (كما يعتقد عوام الناس). و العرب كانوا يعظمون هذا البيت كثيرا, و ينسب بناء هذا البيت الى شخصية او شخصيات الهية نبوية عارفة (يسمونهم ابراهيم و اسماعيل). هذه هي المعطيات الاساسية الموجودة أمامنا. فما هي الفرضية التي يمكن ان تفسر كل هذه الظواهر و تربط بينها برباط تام او قوي جدا ؟

فرضيتي هي التالي: هذا البيت كان يسكنه شخصية او اكثر من الشخصيات التي يعتقد العرب بنبوتها و صلتها بالغيب و الله تعالى, و كل سنة كان أفراد من كل قبيلة يأتون الى زيارة ساكن هذا البيت ليعلمهم امور دينهم. و بعد أن توفي ساكن أو سكان هذا البيت, قام بعض الكبراء الذين يريدون أن يتكسبوا و ينتفعوا بهذا البيت و ما كان يدور فيه, و ارادوا استمرار هذه المنفعة, فحولوا البيت الى مزار, و رسموا طقوسا و شعائرا يقوم بها الناس حين يزورنه و كأن طقوسهم هذه استمرارية تمثيلية لما كان يقع عند ذلك البيت من تعاليم الهية. فالبيت ليس بيت الله و لكنه بيت رسول الله في اعتقاد أهل ذلك الزمان. و الاصنام تعبر عن الشخصيات الصالحة التي كانت تأتي وافدة ممثلة لقبيلتها و تتفقه في الدين, ثم يرجع كل فرد الى قبيلته ليعلمهم ما تعلمه في فترة الحج. و توجه الناس في صلاتهم نحو هذا البيت كان لأن الرسول-في اعتقادهم- يسكن فيه, و الرسول هو باب الله الذي بشفاعته يصل الانسان الى الله, و يشبه الامر سجود الملائكة لادم, فالملائكة سجدوا لادم الذي هو طين داخله روح, كذلك كان الناس يطوفون حول البيت و يسجدون باتجاهه عندما كان البيت (الطين) يسكنه رسول الله (الروح), فبعد أن توفي هذا الرسول أو الرسل, جاء أهل الدنيا و التجار و السياسين كعادتهم في كل زمان و مكان, و فكروا كيف يستغلوا هذا الأمر لمنفعتهم فحولوا البيت و ما حوله الى حجارة ميتة تقصد لذاتها, أو بطريقة "رمزية" كما يحاول البعض أن يسلي نفسه باعتقاد رمزيتها ليبرر لنفسه التوجه للحجر, و لاحقا وضعت خرافات كثيرة حول البيت و طقوسه حتى تجعلها أكثر قبولا للناس من قبل الحجر الاسود الي سقط من الجنة او الشيطان الذي ترجمه سبع مرات و غير ذلك.فهذه الخرافات جاءت لاحقا لتبرير استمرارية هذه الحجارة و طقوسها. وأما في الأصل فلم يكن يوجد شئ من ذلك, و انما هو رجل صالح ياتيه الناس ليتعلموا منه ثم يرجعوا الى بلدانهم و قبائلهم و بيوتهم.

هذه هي فرضيتي التي استقرأتها من بين الكثير جدا من القصص و الاراء و الاخبار و الفلسفات و الانتقادات. و الاستدلال على قوة هذه الفرضية له طريقين: الاول هو اثبات ضعف ووهن كل فرضية او نظرية أخرى تحاول أن تفسر هذه الظواهر. و هذا بحث طويل ليس هنا محله و لعلنا نخصص له كتاب اخر ان شاء الله. و الثاني هو بذكر القرائن المتعددة التي تثبت كل فقرة من فقرات فرضيتي هذه, و هذا أيضا سيأخذ وقت طويل و أحسب أنه سيكون من

الأحسن هو ذكرت هذا في نفس الكتاب الذي أخصصه لنقد النظريات و الفرضيات الاخرى التي ذكرت على مر التاريخ الى يومنا حول هذه الكعبة و شؤونها. و لذلك سأكتفي الان بذكر الفرضية, و التي سيعرف أهل التعمق و النظر قوتها بمجرد تاملها جيدا. فنلختم هذا الكتاب مبدئيا و على الله توكلنا و اليه المصير.

(الامام علي بن ابي طالب عليه السلام و الكعبة- بحسب ما يروى عنه في نهج البلاغة)

يروى عن علي هذا الكلام " و فرض عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام يردونه ورود الأنعام, و يألهون اليه ولوه الحمام. جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته و اذعانهم لعزته. و اختار من خلقه سمّاعا أجابوا اليه دعوته و صدقوا كلمته ووقفوا مواقف أنبيائه, و تشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه. يحرزون الأرباح في متجر عبادته. و يتبادرون عند موعد مغفرته. جعله سبحانه للاسلام علما و العائذين حرما. فرض حجه و أوجب حقه و كتب عليكم وفادته فقال سبحانه و لله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا و من كفر فان الله غني عن العالمين ". تعالوا ننظر في هذا الكلام بهدوء و روية لنرى مقدار ما فيه من الحكمة.

قوله "جعله قبلة للأنام يردونه ورود الأنعام". تشبيه أهل الله تعالى بالانعام هو أول الاعتراضات و دليل على سوء هذا العمل. لا يشبه المؤمن و العارف بالبهيمة, و لا علاقة لهم بالأنعام لا من قريب و لا من بعيد. و لو كان لهم مثل الانعام فهم ليسوا أهل ايمان أصلا. "أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام". و من لا يسمع و لا يعقل فهو من أهل السعير "و قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير". فاذن الله قد حكم على كل بشر يماثل الانعام بانه ليس من أهل السماع و العقل و بالتالي من أصحاب السعير.

قوله "يألهون اليه ولوه الحمام" الحمام يأله و يرجع الى بيته أو موضعه الذي يسكن فيه يوميا, و ليس رجوعه اليه الا من باب السكون فقط, فهو يقضي نهاره في البحث عن الطعام و نحو ذلك ثم يرجع الى موضع سكونه اذا قاربت الشمس على الغروب ليسكن بالليل. فموضع رجوع الحمام ليس فيه دلالة على شئ اللهم الا ضرورة السكن للمعيشة الظاهرية. و لذلك ترى الحمام بأنواعه المختلفة يرجع و يأله الى أماكن مختلفة, كل واحد بحسب الموضع الذي يسكن فيه من الارض. بل النوع الواحد من الحمام الذي يسكن في بلدة واحدة بل و في حي واحد ترى بعضه يسكن فوق هذا البيت و ذاك فوق تلك العمارة و هكذا. و هذا مشاهد للكل. بمعنى أنه ليس لكل الحمام موضع واحد في الارض يألهون اليه. تأمل هذا جيدا. ليس لكل الحمام موضع واحد أو بيت واحد من الارض يألهون اليه و يرجعون اليه. بل كل واحد يرجع الى الموضع الذي يناسبه من حيث معيشته الظاهرية. و بناء على ذلك, لا يوجد مماثلة بين رجوع الحمام الى مواضعها- و هو رجوع يتم يوميا و بحكم الضرورة المعيشية- و بين ذهاب المسلمين و أهل الله تعالى الى مكعب حجري مرة كل سنة أو نحو ذلك ليجلسوا بضعة أيام ثم يرجعوا الى بيوتهم. و لا يوجد علاقة عضوية بين ذات المسلم و بين ذاك الحجر الأسود. و لا علاقة روحانية ضرورية بين العرفاء بالله و بين موضع أرضي معين بحد ذاته لا غير. نعم قد يفضلون بعض الاماكن على أخرى لاعتبارات عرضية (سنذكر هذه النظرية عندما ننظر في كلام الشيخ الأكبر ابن عربي رضوان الله عليه في الفتوحات المكية ان شاء الله تعالى و أيدنا

بنوره). و لكن الامتيازات التي تعطى و تسبغ على هذه الكعبة هي امتيازات حصرية كبيرة جدا و تقوم على أسس غريبة و مزاعم تاريخية يعتقدها أهلها حصرا و لو فتح باب لكل قوم ليدعوا ما يشاؤون فاننا سنجد عند كل جماعة كعبتهم الخاصة, فتأمل.

قوله "جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته و اذعانهم لعزته". هنا يجب علينا أن نذكر بحقيقة كبرى: الحقيقة تنبع من الباطن الى الظاهر, و النفاق يريد الحقيقة أن تنبع من الظاهر الى الباطن. أي, ان أهل الحقائق تسجد قلوبهم لله تعالى ثم يفيض هذا السجود على صورهم و أجسامهم و محيطهم, فيكون هذا الفيض تلقائيا طبيعيا بدون تكلف و لا تصنع. و لكن أهل النفاق يرسمون للناس طقوسا ظاهرية جسمانية صورية رمزية, ثم يأمرونهم بالعمل بها و تنفيذها- تسليما لأمر الله كما يظنون- فيعمل عموم الناس بها و هم لا يدركون ماذا يعملون اللهم الا انهم بحسب ظنهم يعبدون الله أو يعيشون حياة تقوى و قد يملك بعضهم تصورا معينا عن "معاني" هذه العبادة أو تلك, و لكن في معظم الحالات ان لم يكن كلها تكون مجرد معاني وعظية ضبابية أشبه باستنباط الاطفال وقت اللعب من استنباط العلماء وقت الشهود. و تجد هذا الفرق بين أهل الحقائق و أهل النفاق في كل مكان و ليس حصرا على أهل دين الاسلام أو حتى ليس حصرا فقط على الاديان- بالمعنى الخاص- و لكن حتى في المجتمعات و السياسة تجد نفس الأسلوب في العمل و تربية الجماهير. و هنا نجد مثالا رائعا لهذا الفرق. يقول صاحب نهج البلاغة- و قد لا يكون الامام علي بالضرورة و لكن أيا كان فلا يهمنا الشخص و لكن تهمنا الفكرة التي يطرحها- أن الحج الى هذه الكعبة "علامة لتواضعهم لعظمته و اذعانهم لعزته". و هنا نتساءل: هل يتواضع الانسان لعظمة الله و يذعن لعزته ثم يحج او أنه يحج من أجل أن يكتسب هذا التواضع و الاذعان لله تعالى؟ التواضع هو الذي يدفع الى الحج أم أن الحج هو الذي يخلق التواضع؟ ان قلنا أن التواضع يوجد في القلب أولا ثم يحج الانسان فهذا يعني أنه لا فائدة حقيقية من الحج لان التواضع قد وجد و رسخ في القلب. و ان قلنا أن الحج يخلق التواضع في القلب فهذا هو أسلوب النفاق, فضلا عن أنه مخالف للمشاهد من الذين يحجون و يرجعون كما ذهبوا بل قد يرجعوا أخبث مما ذهبوا بسبب غرورهم الذي اكتسبوه من اعتقادهم انهم عملوا عملا "عظيما" كالحج. و لكن يوجد احتمال ثالث و هو في الواقع الاحتمال الوحيد الذي له قيمة, و هو أن التواضع يوجد في القلب ثم يحج الانسان من باب فيض مافي القلب على الجسم و المحيط. بمعنى, أن الانسان الذي هاجر الهجرة الروحية الى الله تعالى و طاف بقلبه حول عرشه الأعلى, و صلى في مقام ابرهيم في الملكوت, و جعل الله تعالى محور حياته جملة و تفصيلا, و هكذا حقق كل معاني الحج الى بيت الله في نفسه و مملكة قلبه و روحه, فمثل هذا قد يرغب و يندفع الى خلق رموز هذا الحج في عالم الصور, او يذهب ليكرر ما عاشه في نفسه ليعيشه بجسمه و صورته أيضا. و لهذا السلوك أصل في الحقائق و هو تنزل المعاني من العالم الاعلى الى العالم الأدنى. و المعاني العليا عندما تتنزل تتمثل في ثوب الصور و الرموز. فعندما يكون قد تحقق بالمعنى و مع ذلك يمارس المبنى فعندها يشعر بتناسق وجوده كله, و يتطابق عالمه الاعلى مع الأدنى. على كل حال هذه هي نظرية قوية جدا من حيث الحقائق التي تقوم عليها. و بالتالي لها حق في الوجود و الاعتراف بها. الا انه يجب التنبه الى حقيقة مهمة جدا: في حال قبلنا هذه النظرية و مقتضاها السلوكي, و الذي هو قبول وجود رموز صورية مثل الكعبة و الصفا و المروة و غير ذلك مما يوجد في مكة هذه, فان هذا يعني أننا يجب أن نقبل أيضا وجود رموز أخرى و تماثيل أخرى. لا يمكن أن نرضا بمبدأ خلق التماثيل في ظل دين معين أو طريقة معينة- كالاسلام المحمدي مثلا- ثم نرفض خلق تماثيل في ظل بقية الاديان و الطرق-

كالبوذية او الهندوسية او المسيحية و غير ذلك. فالمبدأ واحد: اما جواز تمثيل الحقائق الروحانية في صور جسمانية و اما لا يجوز ذلك. و جوازه في طريقة يعني جوازه في كل طريقة من حيث الاصل. و اما ان نسمي تماثيلنا "دين الهي توحيدي" و تماثيل غيرنا "شرك و كفر بالله" من حيث الاصل, فهذا عمل مرفوض تماما و هو من باب الظلم و الحيف و الجهل و الغفلة و التعصب الأعمى. فلا يمكن اثبات أحقية وجود تمثال الا باثبات أحقية وجود ألف ألف تمثال أيضا. نعم قد يكون تمثال طريقة ما يقتضي أن يدعي الحصرية لنفسه و احتكارية تمثيل الحقيقة العليا. مثلا عندما نقول ان "الكعبة هي البيت الوحيد لله تعالى و القبلة الوحيدة في الصلاة". فانه حتى تستقيم رمزية الكعبة – و التي تمثل و ترمز الى ذات الله تعالى و الروح العليا المقدسة- يجب أن تدعي لنفسها هذه الحصرية. و لكن من حيث الحقيقة, هذه الحصرية كاذبة. و هذا فرق دقيق جدا ينبغي لأولي الأيدي و الابصار أن يتنبهوا له. فذات الله يمكن أن تتمثل صوريا بصور متعددة و ألوان مختلفة, كما أن الماء الواحد يمكن أن يخرج شجر مختلف الوانه. هذا هو حكم الحقيقة. و لكن حكم الشريعة, أي شريعة كل قوم و طريقتهم في الحياة الظاهرية الصورية, يجب في بعض الحالات أن تدعي لنفسها الحصرية و الاحتكارية في تمثيل الحقيقة المقدسة, و يكون ادعائها هذا- ليكون له قيمة عرفانية- هو مجرد "مراءا ظاهرا" و لكن في قلوب أهله- ان كانوا من الراسخين في العلم- هم يعلمون أنه ادعاء ظاهري فقط و لكن حكم الحقيقة يعطي غير ذلك كما بينا قبل قليل.

فبدل أن نهدم كل الصور و التماثيل, يجب أن نقبل كل الصور و التماثيل- هذا القلوب من حيث القلب و الحقيقة, و يجب أن نرفض كل تمثال غير تمثالنا من حيث الظاهر و باللسان فقط. فالحقائق العليا و المبادئ المقدسة اما انها تتجلى في العالم الأدنى و اما أنها لا تتجلى. فان كانت تتجلى, فان هذا التجلي اما أن يكون ذاتيا أو صناعيا. ذاتيا أي مهما فعل الناس, سواء قاموا بتصوير الصور أو لا, فان التجلي قائم سواء في الصور الطبيعية كشروق الشمس و اشكال الحيوانات و النباتات, أو في دوافع الناس و أعمالهم عموما. و أما التجلي الصناعي, فهو أن يقوم العرفاء بالحقائق بوعي و حضور قلب بتصميم صور معنية بقواعد معينة و بلغة معينة حتى تكون ممثلة لتلك الحقائق العليا و الذات المقدسة. و من هنا افترق الناس دوما و لا يزالون الى أربعة فرق:

فرقة ترى أنه لا يجوز تمثيل المقدس في صورة جسمانية, لان الصورة بطبيعتها محدودة و المقدس غير محدود. و هذه ترى ضرورة هدم كل الصور. (و الرد عليهم: ان المقدس أصلا يتجلى في الصور الجسمانية بذاتها بحكم تنزل الحقائق, "فأينما تولوا فثم وجه الله". فلا يوجد انفصال مطلق بين المقدس الاعلى و الصور الأدنى. و لكن عدم الوعي بذلك هو سبب هذا الانفصال. نعم قد يكون سر هذا المنع للتمثيل هو مقصد اخر وراءه و هو ضرورة اتصال الناس بالمبدأ الاعلى, فيقوم البعض بتحريم التصوير حتى لا يكون عقبة زائدة أمام الناس في سلوكهم الى المبدأ الأعلى و الانشغال بالصور. و هذه فكرة مهمة و عقبة واقعة فعلا. و لكن مع ذلك يجب أن لا نقبل بهذا التحريم بحجة هذه العقبة. لان التصوير حق, و الاتصال بالمبدأ الاعلى حق, و الانشغال بالصورة عن المقدس الاعلى أي الحقيقة هو عمل باطل و غفلة ممنوعة. و لا يجوز في حكم العدل أن نقتل حقا من أجل أن نمحو باطلا. الحق يبقى و علينا أن نقوم بجهد اخر لمنع وقوع هذه العقبة. و لكن ليس بقتل حق و انما بمحو الباطل بتركيز الجهد و الفكر و النور على محوه. و في هذه الحالة, يجب ان نذكر الناس بأن هذه الصور تمثيل للحقائق العليا و ليس مقصودة لذاتها, بل عليهم أن يتصلوا بالمبدأ الاعلى ثم يتنزلوا الى هذه الصور, و ليس العكس كما يفعل أهل النفاق, و ليس العكوف على تماثيل لا يفقهون أسراها كما يفعل عبدة الاصنام. و أما كون المقدس غير محدود فتمثيلة في شئ محدود فيه دائما ظلم للمقدس. نعم هذا صحيح باحدى الاعتبارات, و هو عندما يعتقد الانسان أن هذا التمثال

يمثل "كل" المقدس. فعندها يكون الاعتراض سليما. و لكن الوعي السليم هو ان هذا التمثال ليس الا احدى صور المقدس. و هنا مرة أخرى نجد ان الاعتراض ينشأ من وعي خاطئ عند الناس, و لتصحيح هذا الوعي يسعى بعض المتهورين المستهترين الى قتل حق اخر بدل أن يركزا جهدهم على الباطل فقط ليمحوه. و أما ضرورة هدم كل الصور, فهذا مستحيل أصلا, استحالة قطعية. لان كل عالم الاجسام صور ! نعم, هم يقصدون بهدم كل الصور أي الصور الصناعية فقط. الصور التي يصنعها الناس, كالتماثيل الدينية. و لكن هذا لا يقوم على علم و تحقيق: لانهم يرفضون وجود "الصور" ثم من حيث التطبيق يرفضون الصور "الصناعية" فقط. و جبرا عنهم سيقبلون بالصور الطبيعية. و لا مجال لتدمير الصور الطبيعية أيضا الا بتدمير العالم ! و لعل هذا يفسر هوس بعض الناس بتدمير العالم و يظهر أنها نزعة نارية ابليسية. هذا أولا. و ثانيا, ان التماثيل الدينية هي لغة. لسان. أسلوب في الكلام. كما أن قول القرءان "الله" هذه الحروف الاربعة أيضا تمثيل للحقيقة الذاتية للمقدس الاعلى. هي أيضا صورة. صورة مصنوعة من الحروف و مكتوبة على ورق او بصوت و نحو ذلك. الكلام صورة. هذا من حيث الحقيقة. و اما أن نعترض عندما نجد المقدس يتمثل في "صورة" كرجل جسمه أزرق له أربعة أيادي, و لكن نرضا عندما نراه يتمثل في "صورة" حروف عربية تقول: الله على كل شئ قدير. فهذا من محض التحكم و العمى. لان صورة الرجل الازرق ذو الاربع ايادي هي لسان و لغة معينة يفهمها أهلها و تعني في المحصلة ان الله على كل شئ قدير لا غير. فاذن الرغبة في هدم كل الصور- خاصة عندما يصدر من أهل دين معين- انما هو سخف و جهل قبيح يجب التخلي و التطهر منه فورا لمن أراد السلامة و الجمال لنفسه)

و فرقة ترى أنه يجوز تمثيل المقدس في صورة جسمانية واحدة فقط, لان المقدس واحد بطبيعته و لذلك تمثيله يجب أن يكون واحدا أيضا. و هذا هو التوجه العام لمعظم الديانات و الطرق. (و الرد عليهم: هو الذي ذكرناه من قبل, و هو أن عالم الصور بطبيعته متكثر متلون و أي محاولة لحصره في لون واحد هو طغيان و ظلم و يستحيل أن يفلح أبدا. الدين ينبع من الحقيقة, و الحقيقة لا تخضع لدين. هذا هو المبدأ الذي يجب أن يراعيه كل أتباع دين يريد الاتصال و الانتساب الى الحقيقة العليا. فيجب أن يعرف كل دين و طريقة أرضية حدها و رتبتها. و لا تطغى على الاديان و الطرق و التقاليد الاخرى. نعم في حال أن التمثال نفسه لا يستقيم الا بادعاء احتكار الحقيقة, فعندها يجب أن يعي الناس هذا الأمر, و يجب أن يربي أرباب كل طريقة أتباعهم على عدم التعرض بسب أو عنف لرموز الاخرين. و في حال أن أهل طريقة تعرضوا بسب أو عنف لرموز الاخرين أو ادعوا احتكار تمثيل الحقيقة ادعاءا فعليا- و ليس صوريا ظاهريا فقط- فعندها يحق لاهل الله و العدل أن يهجموا على تمثال هؤلاء المغفلين و يدمروه تدميرا و يجعلوه جذذا, حتى يعوا رتبتهم و قيمتهم كما هي في الواقع الالهي لا كما تمنيهم أنفسهم وتسول لهم شهواتهم و عصبيتهم الجاهلية. و هذا هو عملي في هذا الكتاب في البداية, و لكن الان يجب أن نبين الحقائق و الطرائق كما هي حتى يكمل الكتاب و التبيان باذن الله و تأييده. و ننبه مرة أخرى الى المغالطة الرئيسية في قولهم "المقدس واحد بطبيعته فتمثيله يجب أن يكون واحدا فقط" و ذلك لان أصل عالم الصور متعدد و متكثر, هكذا حكم الخالق المتعالي جل و علا. و بالتالي تكون أي مخالفة لهذا الحكم هي عصيان لأمر الله و طعن في حكمته. و هذا من الكفر بالله و عمل الأبتر من الناس, المبتور عن الله و دينه الحق. و الحق أن يقال "المقدس واحد في علوه, و لذلك يجب أن يتمثل بصور كثيره في تنزله". فتأمل أيدك الله بروحه ووحيه).

و فرقة ترى أنه لا يجوز تمثيل المقدس في صورة صناعية بشرية, لان المقدس حاضر بذاته في كل الصورة الطبيعية و الانسانية, و اي تمثيل صناعي يعني أن تجلي المقدس ناقص و على الناس تكميله بصناعتهم و هذا طعن و كفر بالله تعالى. (و الرد عليهم : هذا الرأي مبني على انفصال حاد بين الصناعة البشرية و الاعمال الطبيعية, و هذا الانفال وهم. و ان اعتبرنا أن البشر يصنعون الشئ بحكم دماغهم الطبيعي, فهذا يعني أنهم مثلهم مثل بقية الحيوانات و الكائنات الطبيعية, و هذا يعطيها الحق في صنع أي شئ كما انه لتلك الحق في العمل و السلوك. و ان اعتبرنا أن الناس يصنعون بعقولهم الروحانية الواعية المتصلة بالحضرة العلية مباشرة أو بواسطة, فان هذا يعطي الناس حق أكبر في الصنع و اعتبار ما يصنعونه الهيا أكثر من بقية الصور الطبيعية. فعلى كلا الاحتمالين, لا يوجد وجه معتبر لرفع القيمة الالهية و الروحانية عن ما يصنع الناس و يعملونه عموما. فاما ان يعتبروا في جملة "الطبيعة" و بالتالي لهم الحق و الاعتبار, و اما ان يعتبروا "أعلى من الطبيعة" و بالتالي يكون لهم حق و اعتبار أكبر و أعظم و اشرف. و أما عن كون تجلي المقدس ناقص, فان عمل الناس- الروحانيين خصوصا- هو عين تجلي المقدس أيضا فتنبه أيها الاخ العارف و لا تفصل ! فما الذي يجعلك ترى شروق الشمس تجليا للمقدس و لا يجعلك ترى صناعة العارف للكعبة أيضا تجليا للمقدس ؟ تأمل و لا تحرم نفسك بركات الصور الروحانية و تسد على نفسك أبواب السماء) .

و فرقة ترى أنه يجوز تمثيل المقدس في صور جسمانية متعددة, لان حقيقة الوجود و العوالم تعطي أن الحق يكون واحد في أعلى رتبة في الوجود و كلما يتنزل يتكثر. و بالتالي تمثيل الواحد الأعلى في العالم الأدنى يجب أن يكون كثيرا متعددا له ألوان متعددة. سواء كان التمثيل ذاتيا أو صناعيا, لان صناعة الانسان لشئ هي جزء من التجلي الذاتي للحقيقة, اذ الانسان و أفعاله لا يختلف من حيث الطبيعة عن الشمس و شروقها او الشجر و نموه. فالذي يجعل رمزية شروق الشمس "ذاتية" للمقدس, يجعل رمزية صناعة الانسان لتمثال أيضا "ذاتية" للمقدس. فمن حيث الصورة كلاهما ينتمي الى عالم الارض و أسفل سافلين و الرتبة الدنيا في الوجود. و لا يوجد مبرر مقنع او محترم لحرمان الانسان من العمل و الصناعة مع قبول عمل بقية الكائنات. بل العكس, ان كان لاحد الحق في ذلك يجب أن يكون الانسان, لان الانسان خليفة الله. و من أعلم بالله من خليفة الله ! (و لم يبق الا هؤلاء, فلا رد عليهم).

و لذلك نفهم كلام الامام علي عليه السلام أن الحج "علامة لتواضعهم" و ليس: سببا لتواضعهم. فتواضعهم ينشأ من عرفانهم, و حجهم ينشأ من تواضعهم. عرفان تواضع حج. هذا هو التسلسل الرباني. و ما سوى ذلك ففيه خلل كبير. و قل مثل ذلك في باقي صور العبادات في كل الطرق و الديانات.

و الان اذا تأملنا في رمزية الحج سنجدها من أوضح ما تكون في بقية كلام الامام اذ يقول "و اختار من خلقه سمّاعا أجابوا اليه دعوته, و صدقوا كلمته, ووقفوا مواقف أنبيائه, و تشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه...للاسلام علما, و العائذين حرما ". مثل هذه الكلمات اذا أخذت على ظاهرها تبطل قيمتها او تنخسف قيمتها الى حد كبير. فمثلا

قوله أن من دخل الحرم كان ءامنا. ظاهرها باطل. فكم من جرائم و مذابح وقعت داخل هذا الحرم ! و قس على ذلك. و لكن عندما تؤخذ بحقيقتها الباطنية فانها تصبح كلها حقا عميقا مقدسا عظيما. و لسنا هنا في مجال الغوص في هذه الرموز و انما نؤصل الاصول.

فاذن الخلاصة من هذه الفقرة هي التالي: كل من يتصل بعوالم الغيب أو تتصل عوالم الغيب به, و يتحقق بالحقائق العليا المقدسة, فانه ان كمل حاله و استقر مقامه سيتنزل الى العالم الأدنى بتلك الحقائق المجردة, و يقوم بتصويرها في صور عبادات و فنون و كلمات و نحو ذلك مما يوجد في عالم الصور و التماثيل الارضية. و هذا الحق مكفول لكل الناس. و لا يجوز الاعتداء عليه. و ينبغي للعرفاء و العلماء من كل الطرق ان يؤكدوا على هذه الحقائق و يظهروا لاتباعهم جذور الطرائق, و بهذا يبدأ السلام و ينتشر العرفان.

(الشيخ الأكبر ابن عربي رضوان الله عليه و مكة – من كتابه الفتوحات المكية, الفصل الأول, الباب الرابع)

سأنقل الفقرة بطولها لأهميتها و احتوائها على الكثير من الأفكار و الأسرار العرفانية. مع العلم أن الباب الرابع يتحدث عن سبب بدء العالم و مراتب الأسماء الحسنى من العالم كله, الا أن الشيخ الأكبر و لحكمة ما بدأ الباب بهذه الفقرة التي سانقلها هنا ان شاء الله.

" قد وقف الصفي الولي أبقاه الله (يتحدث عن أحد أصحابه عبد العزيز القرشي رحمه الله) على سبب بدء العالم في كتابنا المسمى بعنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء و شمس المغرب, و في كتابنا المسمى بانشاء الدوائر الذي ألفنا بعضه بمنزله الكريم في وقت زيارتنا اياه سنة ثمان و تسعين و خمسمائة و نحن نريد الحج, فقيد له منه خديمه عبد الجبار أعلى الله قدره الذي كنت سطرته منه و رحلت به معي الى مكة زادها الله تشريفا في السنة المذكورة لأتممه بها, فشغلنا هذا الكتاب (الفتوحات) عنه و عن غيره بسبب الأمر الالهي الذي ورد علينا في تقييده, مع رغبة بعض الاخوان و الفقراء في ذلك حرصا منهم على مزيد العلم, و رغبة في أن تعود عليهم بركات هذا البيت المبارك الشريف محل البركات و الهدى و الايات البينات, و أن نعرف أيضا في هذا الموضوع الصفي الكريم أبا محمد عبد العزيز (القرشي) رضي الله عنه ما تعطيه مكة من البركات و أنها خير وسيلة عبادية و أشرف منزلة جمادية ترابية, عسى تنهض به همة الشوق اليه, و تنزل به رغبة المزيد عليه, فقد قيل لمن أوتي جوامع الكلم و كان من ربه في مشاهدة العين أدنى من قاب قوسين, و مع هذا التقريب الأكمل و الحظ الأوفر الأجزل أنزل عليه "و قل رب زدني علما" .و من شرط العالم المشاهد(بضم الميم) صاحب المقامات الغيبية و المشاهد(بفتح الميم) أن يعلم أن للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيرا, و لو وجد القلب في أي موضع كان الوجود الأعم فوجوده بمكة أسنى و أتم. فكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية, و الا فهل الدر مثل الحجر الا عند صاحب حال, و أما المكمل صاحب المقام فانه يميز بينهما كما ميز الحق بينهما, هل ساوى الحق بين دار بناؤها لبن التراب و التبن و دار بناؤها لبن العسجد و اللجين, فالحكيم الواصل من أعطى كل ذي حق حقه, فذلك واحد عصره و صاحب وقته. و (فرق) كثير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات و بين مدينة يكون أكثر عمارتها الايات البينات. أليس قد جمع معي صفيّ أبقاه الله أن وجود قلوبنا في بعض المواطن أكثر من بعض. و قد كان رضي الله عنه يترك الخلوة

في بيوت المنارة المحروسة الكائنة بشرقي تونس بساحل البحر و ينزل الى الرابطة التي في وسط المقابر بقرب المنارة من جهة بابها -و هي تعزى الى الخضر- فسألته عن ذلك فقال: ان قلبي أجده هنالك أكثر منه في المنارة. و قد وجدت أنا أيضا ما قاله الشيخ. و قد علم وليي أبقاه الله أن ذلك من أجل من يعمر الموضع, اما في الحال من الملائكة المكرمين أو من الجن الصادقين و اما من همّة من كان يعمره و فقد, كبيت أبي يزيد (الظاهر أنه البسطامي- قدس سره) الذي يسمى بيت الأبرار, و كزاوية الجنيد (البغدادي, قدس سره) بالشونيزية, و كمغارة ابن أدهم بالتعن, و ما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدارو بقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة. و لهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر, فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد, و ذلك ليس للتراب و لكن لمجالسة الأتراب أو هممهم, و من لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق و المساجد فهو صاحب حال لا صاحب مقام. و لا أشك كشفا و علما أنه و ان عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف و الرتب فان أعلاهم رتبة و أعظمهم علما و معرفة عمرة المسجد الحرام. و على قدر جلسائك يكون وجودك, فانه لهمم الجلساء في قلب الجليس تأثيرا , و هممهم على قدر مراتبهم. و ان كان من جهة الهمم فقد طاف بهذا البيت مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألف نبي سوى الأولياء, و ما من نبي و لا ولي الا و له همّة متعلقة بهذا البيت و هذا البلد الحرام لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت, و له سر الأولية على المعابد كما قال تعالى "ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا و هدى للعالمين. فيه ءايات بينات مقام ابرهيم و من دخله كا ءامنا" من كل مخوف, الى غير ذلك من الايات. فلو رحل الصفيّ أبقاه الله الى هذا البلد الحرام الشريف لوجد من المعارف و الزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك و لا خطر له بالبال. و قد علم رضي الله عنه أن النفس تحشر على صورة علمها, و الجسم على صورة عمله, و صورة العلم و العمل بمكة أتم مما في سواها, و لو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك, فكيف ان جاور بها و أقام و أتى فيها بجميع الفرائض و القواعد. فلا شك ان مشهده بها يكون أتم و أجلى و مورده أصفى و أعذب و أحلى. و اذا صفيّ أبقاه الله قد أخبرني أنه يحس بالزيادة و النقص على حسب الأماكن و الأمزجة, و يعلم أن ذلك راجع أيضا الى حقيقة الساكن به أو همّته كما ذكرنا, و لا شك عندنا أن معرفة هذا الفن, أعني معرفة الأماكن و الاحساس بالزيادة و النقص من تمام تمكن معرفة العارف و علو مقامه و اشرافه على الأشياء و قوة ميزه. فالله يكتب لوليي فيها أثرا حسنا, و يهبه فيها خيرا طيبا انه الملي بذلك و القادر عليه" . تعالوا ننظر الان في هذا النص الثري الممتلئ.

في هذا النص الكريم يعالج الشيخ الأكبر- قدس سره- مسائل متعددة مترابطة. أولها تفاضل الأماكن عموما, و ثانيا سر هذا التفاضل و معياره, و ثالثها كيفية معرفة فضل المكان و رابعها فضل مكة خصوصا.

أولا: عن تفاضل الأماكن عموما فيكتب الشيخ الأكبر "فكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية, و الا فهل الدر مثل الحجر الا عند صاحب حال, و أما المكمل صاحب المقام فانه يميز بينهما كما ميز الحق بينهما, هل ساوى الحق بين دار بناؤها لبن التراب و التبن و دار بناؤها لبن العسجد و اللجين, فالحكيم الواصل من أعطى كل ذي حق حقه, فذلك واحد عصره و صاحب وقته"

كما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية. و هذا هو المبدأ الحقيقي الذي ينطلق منه العرفاء دوما, أي ان العالم الأعلى الروحاني هو الاصل الذي على أساسه يعرف العالم الأدنى و يحكم عليه. فالأعلى يحكم الأدنى. و الدعوى هنا هي أنه يوجد تفاضل في المنازل الروحانية. على ماذا تستند هذه الدعوى؟ على براهين كثيرة, من أهمها النصوص القرءانية التي تتحدث عن وجود "درجات" عند الله و القرب منه. و أن الرسل "فضلنا بعضهم على بعض". و كذلك الملائكة حيث منهم حملة العرش الأعلى ثم من دونهم في المراتب حتى يصل الأمر الى الملائكة الجنود المنفذين في العوالم الدنيا. فجبريل أعلى من ملائكة التسطير, و عزرائيل-ملك الموت الذي وكل بكم- أعلى من ملائكة الموت الذي يتولون التوفي. و هكذا. و يتأسس أيضا على وجود تفاضل في الأسماء الحسنى من حيث شمولية بعضها و جزئية البعض الاخر و ان كان كل اسم يحوي كل الاسماء في الحقيقة. و أخيرا و في الرتبة العليا يوجد التفاضل في الله تعالى من حيث ذاته و أسمائه و أفعاله, و ان كان الوحدة هي هويته و الأحدية هي حقيقته, الا أن التفاضل مع ذلك موجود بدرجة ما, و لذلك يقول العرفاء أن العلم بأفعال الله أقل من العلم بأسمائه, و العلم بأسمائه أقل درجة من العلم بذاته- بالقدر الممكن و الذي هو حسب كشف الشيخ الأكبر أنه لا يعلم من ذات الله الا أنه موجود و أنه الواحد المعبود. و كذلك التفاضل في الكتب المنزلة, حيث القرءان هو الجامع الأكبر لكل الكتب. و يوجد تفاضل- أو حتى مجرد تمايز- بين الجسم و الروح و النفس, و بين الحيوان و النبات و الانسان و غير ذلك من فروق. فالفروق حاضرة في الوجود كله. و الجامع بينها كلها و الموحد لها في العمق الأعمق هو مجرد "الوجود" الواحد.

و لذلك يفرق الشيخ الأكبر بين "صاحب الحال" و "صاحب المقام". فصاحب الحال يكون مستفرقا في هوية الوجود الواحد الأحد, فيعمى عن الفروق الواقعية الحقيقية. فحاله حالة سكر, و لذلك لا يعتد بشهادته في محكمة العلم ! و أما صاحب المقام, فهو الواعي العارف بالحقائق و مراتبها, و هذا يميز بين الأشياء كما ميز بينها الحق تبارك و تعالى. بل على التحقيق التمييز دائما موجود و لا مجال أصلا لغير ذلك. و أكبر تمييز في الوجود هو بين ذات الله و ما سواه, و ان كان ما سواه هو عينه, و لكن مع ذلك يوجد فرق اذ كل ما سواه جزئي و نسبي, و هو تعالى المطلق الوحيد.

و بناء على حقيقة أن الأمور تتمايز و تتفاضل في الوجود كله عموما, و تتمايز و تتفاضل المنازل الروحانية خصوصا, يجب أن يكون التمايز و التفاضل أيضا موجود في عالم الصور و الأجسام.

ثانيا: معيار التمايزو التفاضل في المنازل الجسمانية . يكتب الشيخ الأكبر "و (فرق) كثير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات و بين مدينة يكون أكثر عمارتها الايات البينات"و " ذلك من أجل من يعمر الموضع, اما في الحال من الملائكة المكرمين أو من الجن الصادقين و اما من همّة من كان يعمره و فقد, كبيت أبي يزيد (الظاهر أنه البسطامي- قدس سره) الذي يسمى بيت الأبرار, و كزاوية الجنيد (البغدادي, قدس سره) بالشونيزية, و كمغارة ابن أدهم بالتعن, و ما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدارو بقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة. و لهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر, فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد, و ذلك ليس للتراب و لكن لمجالسة الأتراب أو هممهم," و " ذلك من أجل من يعمر الموضع, اما في الحال من الملائكة المكرمين أو من الجن الصادقين و اما من همّة من كان يعمره و فقد, كبيت أبي يزيد

(الظاهر أنه البسطامي- قدس سره) الذي يسمى بيت الأبرار, و كزاوية الجنيد (البغدادي, قدس سره) بالشونيزية, و كمغارة ابن أدهم بالتعن, و ما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدارو بقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة. و لهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر, فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد, و ذلك ليس للتراب و لكن لمجالسة الأتراب أو هممهم ".

حيث ان الأصل هو "كما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية" فهذا يعني أن معيار التفاضل و التمايز هو معيار روحاني. فحيث تكون الروحانية أشد يكون المكان أشرف و أعظم. ما معنى الروحانية هنا ؟ تعني أربعة أمور: وجود الايات البينات, و الخلو من الشهوات, أن يعمره أهل الروحانية, وجود اثار أهل الروحانية و هممهم. و هذه الأمور الأربعة كلها أو بعضها على اختلاف درجاتها من مكان الى مكان تثمر المعيار الأكبر في تفاضل الاماكن بالنسبة للشخص و هو: وجود القلب و انفعاله.

الايات البينات. هذه تعني الرمزية و تمثيل الصور للحقائق الروحانية العليا.

الخلو من الشهوات. هذه تعني ان المكان مكرس للروحانية و ليس للشؤون الدنوية, لان الدنيا تجذب الى الأسفل, و الروحانية تجذب الى الأعلى, فكلما خلا الجذب السفلي و اشتد الجذب العلوي كان المكان اشد علوية. و لاحظ أن الشيخ الأكبر كان دقيقا جدا في صياغة عبارة "و (فرق) كثير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات و بين مدينة يكون أكثر عمارتها الايات البينات " لاحظ كلمة "أكثر عمارتها" و هذا يعني ليس كل عمارتها. اذ بالضرورة ستوجد صورة و أشياء من الارض, و هذا بديهي لأننا نقيم هذه الصور و المعابد على الارض. و أيضا عند الحديث عن بلد كاملة- مثل مكة- بلد يسكنها شعب دوما, و ليست بلدة معمولة فقط للعبادة, بل هي محل سكن و معيشة, مما يعني أنه بالضرورة سيكون فيها شهوات و دنيوية بل و فجور و جرائم و كفر أيضا, فالعبرة ليس الا للحال الغالبة عليهم, ل "أكثر عمارتها" و ليس كل عمارتها. و ان كان التقليل قدر الامكان من هذه الجاذبية الارضية سيكون سببا اضافيا لزيادة رفعة المكان و شرفه. و من هنا تفهم جانب من قول العرفاء عن مكة "زادها الله تشريفا" فهذه ليست مجرد كلمة شعرية يطلقونها. و لكن عبارة حقيقية و دعوة عميقة لزيادة شرف مكة و غير مكة من المواضع التي كرست للروحانية و القداسة كالحرم النبوي الشريف. و زيادة تشريفها هي بتلك العوامل الأربعة التي ذكرها الشيخ الأكبر.

أن يعمر المكان أهل الروحانية. و هذه هي العمارة الظاهرية أساسا. فيكون المكان مجمعا للعلماء بالله و السالكين الى الله و العاشقين لجناب الحق و المهيمين بحضرة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله, و الدارسين لكتاب الله و طلبة العلوم القدسية و الشرعية, و باختصار: أن يسكنها كل من يريد الارتباط بالمقدس. و بالتالي ينفى منها كل من لا يريد ذلك. و هذا النفي لأهل النجاسة لا يكون بالعنف و انما يكون بأن "يخلو المكان من الشهوات". فأهل الشرك و النجاسة و الدنيا انما يريدون الشهوات, فان وجدوها في مكان سكنوه, و ان خلا منها مكان هجروه. و لذلك ان وجدت أهل الشهوات في موضع فاعلم أن شرف الموضع قد نقص بقدر عدد هؤلاء فيه. و لعل هذا هو سر كون مكة "بواد غير ذي زرع" في صحراء قاحلة و حر شديد. ففي الأصل جعلت كذلك حتى يزهد في أهل الدنيا فلا يبقى فيها الا أهل العبادة و القداسة. و لكن كالعادة هذه الحكمة المفترضة تزول عندما يتحكم قارون و أهله بموضع ما, فيتحول المكان عن طبيعته التي يفترض ان يبقى عليها قدر الامكان, بحيث لا يحصل فيه من التحسينات الظاهرية الا بالقدر الضرورة للمعيشة الطيبة المتوسطة التي يقدر عليها العلماء و السالكين. و يجب على المكان

أيضا أن يكون جاذبا لأهل الروحانية بأن يكون مشتملا على الأمور التي يبحثون عنها في مكان اقامتهم. و سر تشريف المكان بالروحانيين هو لان عمل الانسان يولد ملائكة و شياطين, عمله النوراني الجميل يولد ملائكة و عمله الظلامي الدنيوي المبتور عن الله يولد شياطين. و الروحاني هو من كانت أعماله النورانية أكثر من أعماله الظلامية, و بهذا الحد يسمى روحاني, ثم تتفاضل منازل الروحانيين بحسب مقدار الفرق بين أعمالهم النورانية و الظلامية, حتى يصل الى مرتبة يكون فيها مطهرا تطهيرا عن أي عمل ظلامي و هي مرتبة أهل البيت سلام الله عليهم أي كل من يرقيه الله الى هذه المرتبة يسمى من أهل البيت المقربين, و ان كان كل روحاني من أهل البيت الالهي عموما. اذ يختلف الورثة بمقدار قربهم من المورث فافهم و استعن بالله و الزم. و هكذا تكون عمارة الروحانيين لمكان هي تحويل لجو المكان من الظلامية الى النورانية, ثم زيادة درجات النورانية فيه على مر الزمان, لان من شروط تسمية الفرد بالروحاني هي : الجهاد المستمر في الترقي. و هي رتبة عيسى المسيح اذ قال "و أوصاني بالصلوة و الزكوة ما دمت حيا". تأمل في "ما دمت حيا".

و يعدد الشيخ الأكبر أصناف الروحانيين الذين تتأثر الأماكن بوجودهم: الملائكة المكرمين و الجن الصادقين و الاولياء الصالحين الاحياء بذواتهم و الاموات بهممهم و اثارهم الباقية من بعدهم. فأما عمارة الملائكة و الجن فهذه لا علاقة مباشرة لنا بها. و أما عمارة الاولياء فهذه هي التي يجب أن نسعى في اقامتها و تحصيلها. و في هذا التعداد الثلاثة للشيخ الأكبر يوجد حكمة و هي هذه: كل مكان له رتب في الوجود, و كلما عمرت هذه الرتب بالنورانيين كان المكان أشد نورانية. فلكل مكان رتبة في عالم الملاكئة و رتبة في عالم الجن و رتبة في عالم البشر. أعماق ثلاثة. فقد يمتلئ المكان بالنورانية بالرتبة البشرية فقط, و لكنه يكون خلوا من النورانية بالرتبة الجنية و الملائكية. و هكذا في بقية الاحتمالات النظرية. و الكمال هو أن يوجد الامتلاء بالرتب الثلاثة كلها. و معلوم أن الانسان هو الجامع للرتب كلها, فهو ملائكي بروحه, و جني بعقله و بشري بجسمه و الهي بنفسه (اذا قدست). و بالتالي تكون عمارة المكان بالنورانية الكاملة هي أن يحتوي المكان على أعمال روحية و عقلية و جسمانية و نفسية نورانية. أي ان تكون ممارسة الانسان لذاته في ذلك الموضع كاملة مكملة من كل الجهات, على النظام الالهي الأتم و الشرع النوراني الأقدس. فلا كبت و لا قمع و لا قتل و لا سفك دم و لا سب و لا جدال سوء و لا شئ من ذلك. بل على كل المستويات يكون العمل قائما و يكون قائما بنية الهية و طريقة نبوية و كشوفات عرفانية و علوم ربانية.

وجود اثار أهل الروحانية و هممهم. يوجد فرق بين الاثارة و الهمم. الهمم لها علاقة بذات الروحاني عندما يعمر مكان ما, فهي من افاضات ذاته على المكان و هي في الغالب عمل تلقائي طبيعي منه و هو من محض بركات وجود في الموضع و بالتالي الهمم فرع اقامة الروحانيين في المكان فهي تابعة لما ذكرناه في الفقرة السابقة. و أما الاثار فهي بقايا ما يتركه الروحاني من أشياء كان يستعملها في حياته الارضية, كمثل شعرة النبي عليه السلام او بردته او مصحف أحد الاولياء او سبحته او سجادته و هكذا بقية الأشياء الجسمانية عموما. و طبعا من أكبر الاثار الجسمانية لأي روحاني هي جسمه ! قبر العارف يفيض بركات على المكان الذي يدفن فيه. و من هنا ضرورة الاحسان في مقابر العرفاء و الاولياء و الانبياء و العلماء عموما و العظماء منهم خصوصا. و لعل زرع شجرة على قبر كل عارف و ولي يكون عملا عظيما كأن تكون مقبرتهم في المكان حديقة عظيمة جذرها كامن في قبورهم فليتأمل أهل الاختصاص ما يمكنهم القيام به في هذا الشأن. تبقى أشعة من روح الروحاني على كل شئ استعمله في حياته. و وجود هذه الاشياء في مكان هي مما يزيد من تشريفه و عظمته المعنوية.

و هذه العوامل الاربعة اما انها تسبب أو أنا تساعد القلب اللطيف على الانفعال و الحضور و الشعور بالله تعالى و المشاعر المقدسة و تفتح أبوابا الى سماء المكاشفات و المعارف. فالشيخ الأكبر يقول "للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيرا" و هذا يعني أن القلوب القاسية او الميتة لاحظ لها من روحانية المكان و قدسيته. و بالتالي يكون هذا معيارا جيدا لاكتشاف مقادر لطافة القلب, و هي أن يذهب الى مكان مقدس ثم يرى هل يحضر قلبه و ينفعل أم لا و مقدار الحضور و الانفعال ان حضر. و الميت المحض هو الذي يدخل الى مكان فيه ايات بينات و خال من الشهوات و يسكنه الاولياء و ممتلئ بهمم و اثار الاولياء و مع ذلك لا يتأثر و لا يحضر و لا ينفعل البتة. و كذلك تعرف مقدار حياة قلبك عندما تحب و تتعلق و تنفعل لهذه العوامل الاربعة عموما. فالذي لا يعرف قيمة اثار الانبياء و الاولياء ففي قلبه موت, و الذي لا يبالي بالسكن وسط أهل الغفلة و الجهالة ففي قلبه موت, و هكذا في البقية, و العكس بالعكس, و الله المستعان.

ثالثا: كيفية معرفة فضل المكان. الجواب البدهي بناء على ما سبق هو بمقدار توافر هذه العوامل الأربعة و ثمرتها-انفعال القلب. و لكن الشيخ الأكبر يبين هنا طرق مباشرة و شبه مباشرة و غير مباشرة لمعرفة قيمة المكان.

أما الطريقة المباشرة فهي التجربة الشخصية. فقد ذكر الشيخ الأكبر تجربته الخاصة في قصة المنارة و في مكة أيضا. و ذكر كذلك تجربة صاحبه عبد العزيز القرشي الذي كان يجد قلبه عند المقبرة أكثر مما يجده عند المنارة ووافقه الشيخ الاكبر على ذلك. و هذه التجربة الشخصية مع المكان لها أعماق لعل الكثير ممن ينفعل لمكان معين لا يدرك سر انفعاله. الا أنه يدرك أنه حضر و انفعل. و لا بأس, اذ ليس من شرط صحة التجربة أن تقدر على التعبير عنها. فحصولها لك دليل كاف لك, فليس بعد العيان برهان, و اما التعبير عنها بالكلمات فهذا في حال أنك تريد نقلها الى الغير, و قد يزهد بعض العرفاء او الناس عموما في نقل تجاربتهم الشخصية للغير لسبب أو لاخر, و احدى هذه الاسباب هو ان العارف يقول: لعلي اذا أخبرتهم بتجربتي يعكفوا عليها و لا يجربوا هم بأنفسهم فلا لن أقول لهم لانه من لم يتذوق بنفسه فلن يعرف الحقيقة فعلا.

و أما الطريقة الغير مباشرة فهي خبر الغير. كأن يقول لك نبي أو ولي أن المكان الفلاني فيه كذا و كذا بركة, فتقبل أنت ذلك لسبب او لاخر, كحسن اعتقادك في النبي او الولي. و قد ذكر الشيخ الأكبر هذه الطريقة عندما قبل من صاحبه الشيخ عبد العزيز القرشي رحمه الله كون موضع معين فيه بركة فقبل الشيخ منه و تحقق بنفسه فشهد بصحة ما أخبره به صاحبه. و كذلك عندما يذكر روايات معينة عن بركة مكة و ايات قرءانية و استنباطاته من هذه الروايات و الايات. فخبر الغير اذا قبله الانسان ثم ذهب الى المكان فوجد صدق الخبر يتحول الى تجربة شخصية. الا أن التجربة الشخصية بمعنى أنها مباشرة المقصود منها هي حضور القلب في مكان ما بدون وجود فكرة مسبقة في العقل عن هذا المكان. فهي تجربة قلبية محضة و مباشرة, و هي حقيقية أكثر من أي طريقة أخرى و لا تشوبها شائبة وهم أو ايهام للنفس كما في حالة خبر الغير احيانا. فقد يعتقد الانسان ببركة مكان بسبب خبر نبي أو ولي فيستشعر البركة بحكم الفكرة التي في عقله و عقيدته, و ليس لسبب التأثيرالحقيقي للمكان فيه. فهذه تجربة عقلية و ليس قلبية. و ان كان بعض الافراد في حالات معينة يستطيعون أن يفرقوا في انفسهم بين الشعور المتولد عن فكرةعقلية مسبقة و بين شعور قلبي مباشرة ناتج من اتصال بروحانية المكان. و يظهر ان معظم الناس من

الصنف الذي يشعر بقلبه ما سبق لعقله اعتقاده ثم بعد ذلك يتوهم أن روحانية المكان هي التي أثّرت فيه و ليس لخلق عقله دخل في تولد الشعور. على كل حال, هذه درجات, و كلا وعد الله الحسنى.

و اما الطريقة الشبه مباشرة فهي ما بني على كشف. و هي بين التجربة الشخصية و خبر الغير. و قد ذكر الشيخ الأكبر هذه الطريقة عندما ذكر رتبة الملائكة الذين يسكنون مكة و أنهم أعلى الملائكة على الاطلاق. فلا يوجد نص قراني او روائي بهذا المضمون. و لكنه من باب الكشف للشيخ و لذلك قال "لا اشك كشفا و علما" و كونه ذكر علما يمكن أن يدل على انه استنبط ذلك بعقله أيضا, لعله من باب مقابلة الكعبة بالبيت المعمور بالعالم الاعلى او نحو ذلك من استنباط علمي عقلي. الا أن الشيخ ذكر "كشفا" أولا, فلعل كلمة "علما" بعدها هي من باب تخصيص العام, او وصف, بمعنى انه اكتسب هذه المعلومة عن رتبة الملائكة عن طريق الكشف, و يظهر لي أن هذا هو الأنسب في المقام, اذ لو كان الشيخ الأكبر قد استنبط هذه المعلومة بعقله او من نص معين لما كان "كشفا" اختص به فتأمل. و بالطبع, فان الاعتقاد بحقانية هذا الكشف الذي اوتيه الانسان سيجعل قيمة المكان تعلو في قلبه مما يجعل امكانية حضور قلبه أشد. اذ كلما كان المكان أعظم كانت امكانية حضور القلب أكبر.

فاذن يحد الشيخ الأكبر قدس سره ثلاثة طرق لمعرفة قيمة المكان, أعلاها: التجربة الشخصية. ثم الكشف ثم خبر الغير. الا لو كان الانسان يعتقد أن كشف الغير أعظم من كشفه هو فعندها سيكون تأثير خبر هذا الغير عليه أعظم من تأثيره كشفه الخاص له. فمثلا, اذا جاء خبر من النبي الى مؤمن من اتباعه و ان كان هذا التابع من العرفاء المكاشفين فان تأثير خبر النبي سيكون عليه أشد من كشفه هو. و في كل الاحوال, فان التجربة الشخصية المباشرة هي دائما أقوى المؤثرات, اللهم الا اذا فقد الانسان ثقته بروحه و تأييد ربه و ضعف قلبه, و تعلق قلبه بغيره, فعندها قد يكون خبر الغير أشد تأثيرا فيه من تجربه الشخصية المباشرة, بل قد يتهمها في سبيل خبر الغير, كما يفعل معظم الاتباع عندما يأتيتهم نص من نبيهم او شيخهم أو استاذهم. و أما الترتيب الذي ذكرته في البدء- اي التجربة الشخصية ثم الكشف ثم خبر الغير- فهو ترتيب التأثير بالنسبة للسادة و الأكابر من العرفاء و أهل الله.

رابعا: فضل مكة خصوصا. يكتب الشيخ الأكبر عن مكة "هذا البيت المبارك الشريف محل البركات و الهدى و الايات البينات " و " و (فرق) كثير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات و بين مدينة يكون أكثر عمارتها الايات البينات" و " و لو وجد القلب في أي موضع كان الوجود الأعم فوجوده بمكة أسنى و أتم" و "و لا أشك كشفا و علما أنه و ان عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف و الرتب فان أعلاهم رتبة و أعظمهم علما و معرفة عمرة المسجد الحرام " و و ان كان من جهة الهمم فقد طاف بهذا البيت مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألف نبي سوى الأولياء, و ما من نبي و لا ولي الا و له همّة متعلقة بهذا البيت و هذا البلد الحرام لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت, و له سر الأولية على المعابد كما قال تعالى "ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا و هدى للعالمين. فيه ءايات بينات مقام ابرهيم و من دخله كا ءامنا" من كل مخوف, الى غير ذلك من الايات. فلو رحل الصفيّ أبقاه الله الى هذا البلد الحرام الشريف لوجد من المعارف و الزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك و لا خطر له بالبال. و قد علم رضي الله عنه أن النفس تحشر على صورة علمها, و الجسم على صورة عمله, و صورة العلم و العمل بمكة أتم مما في سواها, و لو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك, فكيف ان جاور بها

و أقام و أتى فيها بجميع الفرائض و القواعد. فلا شك ان مشهده بها يكون أتم و أجلى و مورده أصفى و أعذب و أحلى ".

يؤكد الشيخ على أن حضور القلب في مكة أسنى و أتم. أي في أعلى درجات الحضور. ثم يذكر العوامل التي سبق أن قررها في تفاضل الاماكن عموما, فيقول ان مكة هي مدينة "أكثر عمارتها الايات البينات" فهذا من حيث العامل الاول. و أما العامل الثاني فظاهر أنه داخل الحرم المكي الشريف لا يوجد أي محل للشهوات عموما- على الاقل في ذلك الزمان. و أما العامل الثالث و الرابع و هو سكن الروحانيين و هممهم في المكان و اثارهم فيكتب "و لا أشك كشفا و علما أنه و ان عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف و الرتب فان أعلاهم رتبة و أعظمهم علما و معرفة عمرة المسجد الحرام و ان كان من جهة الهمم فقد طاف بهذا البيت مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألف نبي سوى الأولياء, و ما من نبي و لا ولي الا و له همّة متعلقة بهذا البيت ". و من الامور التي لم يذكرها الشيخ الأكبر في هذا المقطع من كتابه, و لعله ذكره في مواضع أخر, و يذكره كثير من الناس هو كون صحن الكعبة المشرفة يعلو قبور كثير جدا من الانبياء. و يقال أن أعلم أولياء الله يسكنون مكة. أو كما قال الشيخ الأكبر هنا "ما من نبي و لا ولي الا و له همّة متعلقة بهذا البيت" و همة الانبياء و الاولياء تصل الى متعلقاتها و لو كانوا في أقصا الأرض. بل و همة المسلمين عموما متعلقة بهذه الكعبة المشرفة, و لا يتوجه أحد منهم الى هذه الكعبة الا بنية الهية روحانية, كالتوجه للصلاة أو اثناء الوضوء او اثناء ذكر الله أو اثناء القاء درس في العلوم الدينية و نحو ذلك من اعمال راقية معنوية. فالطاقة الروحية التي تغذي هذا المكان لا مثيل لها على الاطلاق. بل حتى بعض الملاحدة أعداء الاسلام اذا ارادوا أن يضربوا مثلا بشئ يتوجه اليه كل الناس قالوا "هذا الشي أصبح كمكة".

ثم يذكر الشيخ الأكبر بعض الاثار القلبية و العرفانية لمكة زادها الله تشريفا فيقول "خير وسيلة عبادية"و "لوجد من المعارف و الزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك و لا خطر له بالبال. و قد علم رضي الله عنه أن النفس تحشر على صورة علمها, و الجسم على صورة عمله, و صورة العلم و العمل بمكة أتم مما في سواها, و لو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك, فكيف ان جاور بها و أقام و أتى فيها بجميع الفرائض و القواعد. فلا شك ان مشهده بها يكون أتم و أجلى و مورده أصفى و أعذب و أحلى ". فالمعارف التي تكشف ببركة مكة كبيرة جدا لدرجة لا تخطر على بال, و يكفي شاهدا على هذه الدعوى كتاب الفتوحات المكية للشيخ الاكبر فانه الكتاب الأعظم بعد القرءان في الاسلام بل من أعظم الكتب التي ظهرت للناس على الاطلاق ان لم يكن أعظمها. و لو لم يكن عندنا القرءان لاستطعنا اثبات ربانية ديننا و عظمته بل و اعجازه ان شئت بكتاب الفتوحات المكية. و أيضا الأعمال في مكة أتم من غيرها و لو دخلها الانسان ساعة فضلا عن المجاورة فيها. فاذن المعرفة فيها أتم و العمل فيها أتم. و ليس وراء تمام المعرفة و العمل شئ. و بالتالي ليس وراء مكة شئ أتم منها. هذا في حال حفاظها على قدسيتها و روحانيتها و زيادتها, و أما اذا تحولت الى سوق للتجارة الرخيصة و شراء الدنيا بعمل الاخرة و مرعى للبهائم فلا والله.

و بهذا البيان, نكون قد أتممنا مسألة القبلة و شؤونها. و الله يقول الحق و هو يهدي السبيل.

(من الجامع الاقصى الى المسجد الاقصا)

(تمهيد)

"و لقد صرفنا للناس في هذا القرءان من كل مثل, فأبى اكثر الناس الا كفورا" الاسراء 89.

ما هو المسجد الأقصا ؟ ما معنى "الأقصا"؟ و ما علاقة ذلك بالاسراء من المسجد الحرام؟ و هل هما اماكن جسمانية أرضية أم أمر اخر فكري روحاني و معنوي؟

مما نراه و نسمعه حولنا هو أن كلمة "الأقصا" أصبحت "الأقصى" , و أصبح مصداق هذه الكلمة هو مبنى جسماني في فلسطين, و كذلك المسجد الحرام هو مبنى جسماني في صحراء الأعراب, و أصبح الأسراء قصة عجيبة سميت "الاسراء و المعراج" و هي من الأمور المشهورة الى حد بعيد بين المسلمين, أو من يسمون أنفسهم ذلك.

و من المفكرين من رفض ان تكون قصة الاسراء و المعراج امر جسماني , و كذلك رفض أن يتخلى عنها كليا, فانه توسط و جعل القصة مجرد رموز عرفانية و انها كانت رؤيا راها النبي عليه السلام ليس أكثر, و جسمه لم يتحرك من مكانه, فهي كشوف قلبية ليس أكثر (و هل يوجد اعظم و اكثر اصلا!)

فيوجد ثلاث نظريات على الساحة: النظرية التي سنطرحها نحن و التي لا تجاوز القرءان و لا تنظر في أي مصدر اخر على اعتبار أن القرءان كامل و مفصل تفصيلا و هذه هي قاعدة منهجنا في كل دراسة قرءانية كاشفة. و النظرية السائدة في العالم الاسلامي. و نظرية بعض المتصوفة و أشباههم التي لا ترفض النظرية السائدة كليا بل تأخذ بها رمزيا.

أما النظرية الثالثة, الرمزية. فاننا يجب أن نبعدها من الطريق لأسباب: أولا, ان كل قصة أو خرافة اسطورية في العالم يمكن أن نراها بطريقة رمزية و نستنبط منها معاني عرفانية, و هذا لا يعني أن القصة صحيحة بذاتها. ثانيا, ان قصة الاسراء و المعراج نفسها كما ترويها كتب الأحاديث و السير تبين أنها أمر جسماني, كالانتقال الى مبنى في فلسطين, و كرؤية النبي لبعض القوافل حين عودته من هذه الرحلة, و الصعود الى السماء و تصورها على أنها مبنى يشبه القلاع و الحصون في الأرض, و رؤية أجسام و هيئة الأنبياء في السماء كابرهيم و موسى و عيسى ووصف النبي لهم للمشركين من قريش حينما سألوه, و الأكبر من كل ذلك هو أن النبي لو كان قد حكى للناس أن هذه الرؤيا هي أمر روحاني أو في المنام لما تعجب منه الناس و لما ارتد بعض المسلمين بسبب هذه القصة الخارقة. ان جعل القصص امر رمزي بدون اخبار راوي القصة لنا بأنها أمر رمزي و "أمثال" كما يصف القرءان نفسه, ان هذا الجعل يدل على ان الشخص لا يستطيع أن يقبل بهذه القصة و في نفس الوقت لا يريد أن يكفر بها و يرفضها, فيحيلها الى رموز عرفانية و يحسب أنه على شئ صلب.

النزاع الحقيقي هو بين النظرية السائدة و النظرية التي سنعرض لها في هذا البحث. فلنبدأ بذكر ما نراه ثم نذكر انتقاداتنا على النظرية السائدة, ثم لننظر أين سنصل, فتعالوا ننظر...

(المسجد الأقصا)

"سبحن الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا الذي بركنا حوله لنريه من ءايتنا انه سميع عليم"

و "جاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من النصحين"

و "جاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يقوم اتبعوا المرسلين"

و "و اذا قرئ عليهم القرءان لا يسجدون" و "انا انزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون"

و " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا".

نظريتنا مبنية على هذه الايات كأساس.

أولا, ما هو المسجد؟ يقول "و اذا قرئ عليهم القرءان لا يسجدون" و "انا انزلناه قرءان عربيا لعلكم تعقلون" . فعندما يسمع أو يتلو الانسان كلمة من القرءان, فأول عمل يقوم به هو أن يعقلها, ثم يعمل بها. هذا هو الانسان العابد لله. و هذا أمر منطقي في كل فكرة, فان أول ما تفعله هو أن تفهم ما تقوله و تقتضيه الفكرة, ثم قد تعمل بها و قد لا تعمل بهذا المقتضى. فعندما يأمر الله و يرشد الى عمل معين عن طريق القرءان, فان أول ما نقوم به هو أن نتعلم هذا الأمر "و لا تقف ما ليس لك به علم" , ثم بعد أن نعقل هذا الأمر و نفهمه فاننا نحكم به و نعمل به في واقعنا, و اذا كان أمر فكري في أساسه فاننا نحول فكرتنا القديمة المخالفة لأمر الله و نجعلها توافقه, و هذا لا يتم الا بالفهم العميق للفكرة التي يعرضها الله, و بنقد و كشف العيوب في افكارنا القديمة. فالسجود في و للقرءان هو أن تعقله ثم تعمل به. و ليس فقط أن تعقله, اذ من الملعونين من يحرفون كلام الله "من بعد ما عقلوه و هم يعلمون" ,و أيضا ليس فقط أن نعقل القرءان و نقوله و ندعو اليه بألسنتنا, اذ من المقوتين من "يقولون ما لا يفعلون" ففي السجود خصيصة أخرى و هي العمل بمقتضى هذا العقل و الفهم السليم. فكل اية مسجد لله. اذ عندها يمكن أن يتم السجود لله عقلا و قولا و فعلا. و لذلك قال "خذوا زينتكم عند كل مسجد" , و الزينة قد تكون زينة الحيوة الدنيا المقوتة و حطامها الملئ بالتفاخر الظاهري على الناس و الاستعلاء على المستضعفين, و قد تكون زينة باطنية و هي العقل, و لا شك أن الله لا ينهى عن الزينة الدنيوية ثم يأمر الناس بأخذها الى محضره المقدس!! و لكن هي زينة العقل, و هذا مفهوم و متناسق مع تعاليم الله و رؤيته , اذ ان التعامل الأمثل مع كتاب الله هو بأن لا نخر على اياته صما و عميانا, بل نتدبره و نعقله و نتعمق فيه, و هذا كله من عمل القلب الذي يفقه, و يعقل. فاذن المسجد هو كل كلمة من كلام الله-كأصل.

ثانيا, هي يوجد أنواع متعددة من المساجد؟ اذا عرفنا أن المسجد هو كلام الله, و عرفنا أن كلام الله على أنواع, و بالطبع هي مترابطة و لكن أيضا متمايزة, فقد نراها بعين كلية و قد نراها بعين تحليلية. مثلا, الشمس, هي واحدة, و لكن هي أيضا متعددة اذا حللناها الى جرم و ضوء و حرارة و ما شابه. كذلك كلام الله هو واحد, و لكن فيه القصص و فيه الاحكام و فيه الوصايا و فيه البشارات و الانذارات و فيه الكلام عن ذات الله و غير ذلك مما هو في القرءان. فالاية تبين انه يوجد "المسجد الحرام" و يوجد "المسجد الأقصا". فاذا نظرنا في كلمة "الحرام" سنعرف فورا أن المقصود هو اوامر معينة لها صبغة "الحرام" و عندها ستظهر لنا ايات الصرط المستقم التي بدايتها "قل تعالوا اتل ما حرم ربكم" فكل هذه الحرمات و تفصيلاتها هي بمجموعها تسمى "المسجد الحرام".

ثالثا, ما معنى "الأقصا"؟ ذكرت هذه الكلمة في سورة القصص و سورة يس. في القصص "و جاء رجل من اقصا المدينة يسعى قال يموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك" . فأقصا المدينة هو محل اجتماع الملأ الذين يصدرون الأوامر

التي تنفذ في المدينة. فقد نقول أنه مجلس الحكم أو اجتماع الحكام و الوزراء. و هذا هو مجلس فرعون و ملأيه الذين كانوا يتشاورون في قتل موسى كما ذكر الايات الأخرى عنهم "قال فرعون ذروني أقتل موسى و ليدع ربه. اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد" "قالوا أرجه و أخاه و ابعث في المدائن حشرين" و غيرها من ايات قصة موسى. و ظاهر أن "أقصا" لا تعني ارتفاع جسماني , و لكنه ارتفاع رمزي و يدل على علو نسبة المكان الذي تصدر منه الأوامر, و لو كانوا ظاهريا في مجلس تحت الأرض. فالآمر ينسب الى العلو, و محل تنفيذ الأمر ينسب الى السفل. و لذلك لما يقول الله " هو القاهر فوق عباده" هو لا يعني نسبة مكانية جسمانية, اذ ان الله "هو الأول و الاخر و الظهر و الباطن" و "فأينما تولوا فثم وجه الله". فالمكان في القرءان هو اشارة الى المكانة المعنوية المقامية, و ليس المواضع الجسمانية. و نرى أيضا ذلك في قصة قرون عندما خرج على قومه في زينته ثم خسف به الأرض, تقول الاية "فأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس" فهم لم يتمنوا الا "ياليت لنا مثل ما اوتي قرون" فهي المكانية بالمثال, و ليس بالجسم. و كذلك في سورة يس "و جاء من أقصا المدينة رجل يسعى". فاذن الأقصا هو نسبة مثال و مكان صدور الأوامر.

رابعا, فما معنى "المسجد الأقصا"؟ كما رأينا في قصة موسى, فان "أقصا المدينة" هو مجلس الملأ الذي يصدر الأوامر. فهل يوجد مثل هذا المجلس أو الملأ في عالم السماء؟ نعم! يقول النبي في القرءان " قل هو نبؤا عظيم. أنتم عنه معرضون. ما كان لي من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون. ان يوحى الي الا انما انا نذير مبين" فالملأ الأعلى هو المصدر الذي ينزل منه أمر الوحي الالهي الى النبي. فذاك هو أقصا المدينة الربانية الكونية: مجلس الملأ الملائكي الأعلى.

و هذا المجلس يعتبر مسجدا من حيث أن الله ينزل اليه الأمر و منه ينزل الى الدرجات الأخرى في العوالم. " و المدبرات أمرا". و هذه التدرجية في الأمر المنزل و المنفذ في العوالم منشورة في القرءان على نحو ظاهر. فمثلا, في مسألة التوفي, مرة يقول "الله يتوفى الأنفس حين موتها" و مرة يقول "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم" , و مرة يقول "الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم". فمن الذي يتوفى الأنفس: الله أم ملك الموت أم الملائكة؟ الجواب: كلهم! و كذلك مرة يقول "الله نزل" و مرة يقول "نزله روح القدس" و مرة يقول "ن و القلم و مايسطرون", فمن الذي نزل الكتاب: الله أم روح القدس أم الملائكة؟ الجواب: كلهم! و هذا هو سر استعمال الله لضمير "نحن " و "انا" و غيره من ضمائر الجمع, فهو ليس للتعظيم الشعري, و لكنه دلالة على حقيقة. الله يوكل الملأ الأعلى المكون من كبار الملائكة, مثل ملك الموت و ملك الوحي و غيرهم من رؤوساء الملائكة. و تحت هؤلاء جنود الملائكة الذين ينفذون الأمر التفصيلي. و نرى انعكاس لهذه الحقيقة الوجودية و القرءانية الى حد ما في عمل الناس الذين فيهم من روح الله و لو بالكمون, و هو أننا نرى الرئيس يعطي الأمر للوزراء و الوزراء يعطونه و يفصلونه لمن دونهم في الدرجة و لو كانوا سواء معهم في الانسانية , فالوجود عدل و لولا الجنود لما استطاع الوزير أن يفعل شئ, و كذلك الى أعلى درجات الهرم. فاذن المسجد الأقصا اولا هو مجلس الملأ الأعلى.

و على اعتبار ان المسجد هو ايات الله. فان المسجد الاقصا يكون هو الحكمة وراء الأمر الالهي. فمثلا, من المسجد الحرام يوجد أمر الهي يقول "و لا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق". هذا امر ظاهري, و لكن ما الحكمة الباطنة التي اقتضته, أي لماذا حكم الله بذلك, لماذا أمر به أصلا, ما النية او الغاية التي يريدها الله من تشريع هذا الأمر, ما هو سره؟ البحث في الاجابة عن كل هذه التساؤلات هو اسراء من مسجد حرام الى مسجد أقصا. و عندما يقول "من المسجد الحرام الى المسجد الاقصا" فان هذا يدل على حصول نوع من العلم الكلي بكل شؤون الوحي الالهي, ظاهرا و باطنا, مجملا و تفصيلا لكل شئ, في كل المستويات و العوالم. فهو تحقق علم الله في هذا العبد الذي تعبد و استعد قلبه لقبول هذا العلم. "انا سنلقي عليك قولا ثقيلا". فالمسجد الحرام هو الأمر الظاهر, و المسجد الأقصا هو التأويل و الحكمة التي من أجلها نزل الأمر الظاهر.

و هذه العلاقة بين الأمر الظاهر و حكمته, و الاسراء, هي ليست فقط حقيقة قرءانية, و لكنها من سنن الله في العالم, فحتى الكفار و الفساق و ألعن عباد الله يقومون بهذه السنة. فعند كل البشر, نرى اولا أن أسباب معينة تجعل من بيده انشاء الأوامر يصدر أمرا ما, ثم يعطيه للمنفذين و العمال, ثم قد يسأله أحد العمال "لماذا أمرت بكذا؟" و عندها قد يكشف له عن السر الحقيقي أو قد يكذب عليه او يطرده من حضرته. فدائما يكون أولا صدور الأمر من الأعلى الى الأدنى, ثم الأدني يتساءل عن حكمة الاعلى من هذا الأمر. و هذه المعادلة توجد في نفس الفرد (كأن يصدر اللاشعور له رؤيا في المنام, ثم يتساءل عقله الواعي عن معنى هذا الحلم) , و في الأسرة (كأن يمنع الاب التدخين في المنزل, ثم يتساءل الابن عن الحكمة وراء هذا الامر, كأن يكتشف أن الأب يريد صحة أجسام من يعولهم اذ هو يحبهم), و في الشركات التجارية (كأن يصدر مجلس الادارة العليا أمر بان تعطى مكافأة لأكثر الأشخاص انتاجا كل شهر, ثم قد يتساءل الناس عن سر هذا الأمر فيكتشفون أن مجلس الادارة يعتقد بأن المحفزات المالية تلعب دورا في دفع العمال الى العمل), و كذلك في الدولة (كأن يأمر الرئيس الجيش بالاستيلاء على دولة, ثم لاحقا قد يتساءل الجنود عن السبب الذي دفع الرئيس لاصدار هذا الامر, فيكتشفون مثلا بأن هذه الدولة تملك أسلحة نووية تريد أن تستعملها لابادة دولتهم) و كذلك نراه في الافاق و علم الطبيعة (كأن نرى سقوط الأجسام الى الأرض فنتساءل عن السر وراء هذه الظاهرة الواقعية و الأمر الافاقي فنصل الى نظرية الجاذبية و ما وراءها مثلا). و هكذا نرى حقيقة الاسراء موجودة في كل مكان.

فقد نقول أن المسجد الحرام هو التنزيل و الظاهر, و المسجد الاقصا هو التأويل و الباطن. و حيث ان كتاب الله يحوي كل الظاهر و الباطن فان الاسراء يكون من القرءان و الى القرءان و في القرءان و بالقرءان. فكما أن المسجد الحرام موجود في هذا الكتاب, فان المسجد الاقصا أيضا موجود في هذا الكتاب. اذ لم يأمر الله بأمر الا و فصله تفصيلا. فعلى خلاف الأمثال التي ضربناها لوجود حقيقة الاسراء في كل مكان, فان الله لم يخفي علينا حكمته, و لم يفرق بين الأمر و حكمته, بل جعل الأمر مقرونا بحكمته في كتاب واحد و هذا سر قوله المنتشر "الكتاب و الحكمة" فالكتاب هو الكلمات المسطورة امامك, و الحكمة هي معاني و اسرار هذه الكلمات. فمثلا, اذا قال الله "أقيموا الصلوة", هذا امر, فاذا اردت أن تعرف تفصيله و حكمته و أسراره فانها كلها موجودة في نفس الكتاب. و كذلك في كل أمر. فالقرءان جامع لكل شئ و مفصل لكل شئ.

القي الي الان لحم جديد. الاية تقول "سبحن الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا الذي بركنا حوله لنريه من ءايتنا انه سميع عليم", لاحظ ان سر الاسراء أو علته هي "لنريه من ءايتنا". كلمة "من" هنا قد تعني التبعيض, أي بعض ءايتنا, و لكن هذا ينافي كون الاسراء سبب للعلم الشامل, و ان الله اذا أعطى العبد التام المحض فانه يعطيه كل شئ-اذ استعداده تام و الامداد بحسب الاستعداد, فاذا كان الله قد أرى فرعون كما يقول "و لقد اريناه ءايتنا كلها" , فعبد الله المخلص أولى بأن يريه الله ءاياته كلها! و الاحتمال الاخر هو أن "من" هي للاشارة الى المصدر, اي أننا أرينها "من" ءايتنا. و هذا يزيد وضوح ما ذكرناه من قبل, أي ان الاسراء هو عمل يتم في القرءان نفسه, "لنريه من ءايتنا", و هو يناسب ختم الاية بقوله "انه سميع بصير" و هذان الاسمان يدلان على العبد و ليس على الله, اذ الله لا يقال أنه "سميع" و لكن "السميع" , و لا يقال "بصير" و لكن "البصير". فالعبد الذي يستقبل كل هذا العلم هو "سميع بصير".

و لاحظ أن الاسمين يناسبان تماما ترتيب ذكر مراحل الاسراء. فأولا يوجد السماع ثم العقل, "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون" و "قالوا لو كنا نسمع أو نعقل". فالأمر يسمع, و الحكمة تعقل. فقوله "سميع" يدل على أنه سمع أوامر "المسجد الحرام", و قوله "بصير" يدل على أنه أبصر حقائق و أسرار و حكمة "المسجد الاقصا". "ما زاغ البصر و ما طغى, لقد رءا من ءايات ربه الكبرى".

يوجد دليل اخر في قصة موسى لما ذهب الى النار. في هذا المثل رمز عظيم. يقول "فلما اتاها نودي أن بورك من في النار و من حولها و سبحن الله رب العلمين". تأمل كلمة "من في النار" و "من حولها". و اعقل هذا بقوله عن المسجد الأقصا "الذي بركنا حوله". ثم اعقل هذا بكون نار موسى تكلم الله منها و هداه منها, و ان المسجد الاقصا منه ارى الله عبده اياته الكبرى. و الحم بداية الاسراء بكلمة "سبحن" و ختم نداء موسى بكلمة "سبحن الله رب العلمين". ماذا ترى بعد كل هذا ؟

الله هو الموحي و النار حجابه(بورك من في النار). و ملائكة الملأ الأعلى هم (من حولها). و القلب العابد الذي يسرى به الى المسجد الأقصا هو كموسى الذي ذهب الى النار ليقتبس منها أو يجد على النار هدى.و لذلك في المسجد الاقصا لم يقل "بركت حوله" بالمفرد, و لكنه قال بالجمع "بركنا حوله". فكمثال صوري يكون مجلس الملأ الأعلى هو نار في الوسط و حولها رؤساء الملائكة يسمعون كلام الله من النار. و يأذن الله للمخلصين من الناس بأن يدخلوا هذا المجلس ليسمعوا من النار أيضا , كموسى, و يأخذوا من رؤساء الملائكة أيضا. اذ الكل مبارك. و كما تلاحظ فانه لا علاقة لعالم الأجسام و الأرض بكل هذه الأمور. هي أمور روحية في عالم اخر, و درجة أخرى في العوالم. و كون الاسراء يتم "ليلا" هو دلالة على عالم الغيب و البعد الباطني. فالقرءان يقدم الليل على النهار كما يقدم عالم الغيب على الشهدة. فاذن المسجد الأقصا هو أمر روحاني باطني, و مصدر الحكمة العقلية و منبع الأسرار التي يقوم عليها الوحي.

(المسجد الأقصى)

النظريات عموما تستمد قوتها من امور أهمها هو معيار "التفسير", أي كلما كانت النظرية المعروضة تفسر عدد أكبر من الظواهر التي نريد تفسيرها كلما كانت اقوى, و العكس بالعكس. و في حقل التاريخ فان الوقائع نادرا ما يكون من الممكن اثباتها قطعا او ما يقارب القطع, هذا في الوقائع المهمة, و اذا دخلنا في تفسير الوقائع التاريخية فان الصعوبة تشتد أكثر فأكثر حتى وصل الحال ببعض كبار دارسي التاريخ أن يقولوا أن "التاريخ نصفه كذب و نصفه ظن" و اخر يقول أن التاريخ "بيت الكذب و مرتع الضلال و متجشم اهواء الناس", فاذا دخلنا الى تاريخ ممزوج بالدين فان الصعوبة تشتد اضعافا مضاعفة, فاذا دخلنا الى وقائع مخالفة للمحسوس فاننا نقترب أو نصل الى مكان لا يسعى اليه الا من له مارب خاصة من اثبات هذه الوقائع وراء الوقائع ذاتها. وفي حقل القرءان فان أول معيار لثبات النظرية و أخذها في الحسبان مبدئيا هو ان تكون هذه النظرية مأخوذة من القرءان حصرا, و تعتمد

عليه وحده , فمثلا اذا فسر أحد اية أو قصة بوقائع ليست من القرءان (كمثل تفسير اقامة الصلوة بالقيام بهذه الطقوس و التفصيلات السائدة) فانه لا محل أصلا لمثل هذه النظرية بين علماء القرءان الحق, و انما تناقش على اسس اخرى.

و الان, النظرية السائدة في الاسراء و المعراج و المسجد الأقصى, أين تقع بين هذه الحقول الثلاثة؟

من ناحية تفسير الظواهر, سنرى بعد قليل. و من ناحية التاريخ, فان الخلل يشوبها من كل مكان, و تقع في الدائرة الرابعة و هي حقل القصص الديني المخالف للمحسوس تماما. و من ناحية القرءان, فانها مبتورة منه, و تفصيلاتها من اولها الى اخرها تعتمد على مصادر خارجية, و ما حصة القرءان فيها الا كحصة الشريك المنبوذ المستضعف. و هذا بحد ذاته يكفي لطرد هذه النظرية من الحياة الالهية لأهل القرءان. بالرغم من اعتراف أنصار هذه النظرية (و ما اكثرهم!) بأن قصة الاسراء و المعراج هذه من اهم القصص, و تم فيها الكثير من الأمور العظيمة, و منها "فرض الصلوات الخمس" التي هي عمود الدين و الفرق بين المؤمنين و الكافرين, و هي التي غربل الله بها صحابة رب العالمين, فمع كل ذلك لم يذكرها الله في القرءان تفصيليا, و لكن كان عند الله امور أهم و هي تفصيل الطلاق و الحيض و ماذا سيوضع في جيد امراة ابو لهب!! و أما تفصيل هذه الرحلة العظيمة (عندهم) فان الله أوكله الى بضعة رجال, الله أعلم بهم! كون القرءان مفصل تفصيلا و هو مرجع العلماء بالله الوحيد, هو أمر مسلم به و قد بحثناه مرارا, و تنزلنا مع المخالفين له و عرضنا حججهم التي أعطيناها تكرما وصف حجج- و ما هي بحجج عند أهل العلم- تكرارا, فلن نعيد في هذا المقام شئ من ذلك و نكتفي بما ذكرنا.

فقرءانيا ليس لهذه النظرية أي سند معتبر. فهي لا تنتمي لعالم كتاب الله هذا, بالرغم من محاولتها المستميتة للتعلق بأذيال كتاب الله و استمداد شئ من الشرعية لنفسها.

و أما من الناحية النظرية, فانه لا يوجد ظواهر نريد تفسيرها فذهبنا لاستمداد العلم ,و خرجنا بقصص الاسراء و المعراج هذه. انما هي قصة تروى, و تدعي لنفسها الواقعية و الالهية.

فاذن لا يبقى الا مناقشة هذه النظرية على محك التاريخ و نقد المرويات بذاتها. مع العلم أنه بدون القرءان ليس لهذه النظرية أي قيمة. فمثلا, هي تستمد شرعيتها من كون المسجد الحرام هو بناء جسماني في صحراء الأعراب, و المسجد الأقصى (مع تحريف الألف, لعله من حفظ الأدب مع الله!) هو بناء جسماني في فلسطين. و ان النبي الأول عليه السلام قد رأى أنبياء ذكروا في القرءان في السماء و راى هيئاتهم الجسمانية, و غير ذلك من التعلق بأذيال القرءان لاثبات أو محاولة اثبات أن هذه القصة لها علاقة بالله و أنها امتداد لكتاب الله. فعملنا هو هذا: سنذكر قواعد هذه النظرية و ننقدها, ثم سنرى ما تنسبه الى القرءان من أمور و ننقدها, ثم سننظر في اثارها على حياة

المسلمين. و أمور أخرى الله أعلم بها و يظهرها في قلوبنا أثناء الدراسة. و لن أشرح القصة كأني أشرحها الى جاهل بها بل مجرد مذكر.

(االدرس و النقد)

سأعرض هنا انتقادات على هذه الروايات تباعا و حتى يسهل على القراء نقد ما سأذكره و ليتبين لهم الامر بسهولة ان شاء الله.

1 يقال أن الاسراء و المعراج هذا هو ذروة التكريم للنبي. أقول: ان معرفة ذات الله هي ذروة التكريم, و ذروته التالية هي تنزيل كتابه على قلب عبده. و ليس وراء ذلك شئ. و أما التنقل السحري من منطقة أرضية الى أخرى

على شبه بغل , و التجول الجسماني (على فرض امكانه) في عالم السموات للتسليم على انبياء معينين, فليس من هذا و لا ذاك. و ما هذا الا صنع لفضيلة للنبي بطريقة مستحيل للمؤمن ان يحققها لكي يشعر المؤمن دائما انه دون النبي, و هذا يمهد لجعل النبي الها أو شبه اله (كما هو الواقع عندهم) و ثم صبغ ما ينسب اليه من حديث على أنه الهي مقدس, و بعد ذلك الطامة الكبرى التي حلت في الامة. لا يوجد فضيلة لبشر الا و هي ممكنة في حق كل البشر. فنحن لا نعترض على المقام, و لكننا نعترض على احتكار المقام, و الفرق بينهما كبير جدا. و حتى تنزيل كتاب معين كالقرءان ليس هو بحد ذاته فضيلة, اذ ان القرءان نفسه هو وسيلة لمعرفة ذات الله و العوالم فقط. و من بعد هذا العشق الالهي ينبع كل خير. بل ان القرءان نفسه لم ينزل الا لأن أكثر الناس تكاسلت عن السير الى الله, فرحمنا الله بانزال العلم الينا بدل أن نصعد نحن اليه. و هل أصلا جاء الرسل و الكتب الا بعد أن اختلف الناس و انتشر الفساد في الأرض؟ ألا ترى أن كل نبي و رسول يأتي برسالة اصلاحية معينة كمثل شعيب و التجار , و ابرهيم و الأصنام, و موسى و الطغاة. فانزال الكتب المعينة دليل على وجود شر, فهو ليس خير بذاته, و لكنه خير لأنه يرجع الناس الأشرار الى الخير الفطري. فدين الله كامن في القلب "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله". و من ناحية أخرى, فان الله ينزل فعلا كتب لكل قلب سليم, و لكن هذا لا يعني أن الكتاب يجب أن يكون كهذا القرءان من حيث الظاهر. فقد ينزل الله على قلب رجل مثل جلال الدين الرومي كتاب كالمثنوي, أو على قلب ابن عطاء الله السكندري كتاب كالحكم العطائية, فالعبرة ليست لظاهر الألفاظ و المباني و لكن لجوهر الرسالة و المعاني. فكل نور ينتشر في الناس انما هو من نور الله و هدايته, و لو لم يكن الانسان عربيا أو حتى مسلما بالمعنى المشهور, اذ لا يوجد أصلا نور غير نور الله "الله نور السموت و الأرض". فمعرفة ذات الله و تنزيل كتب نور الله هما تكريم يمكن أن يصيب كل قلب سليم, فلا احتكار. و أما قصة المعراج هذه فانها محاطة بالاحتكار الذي نعلم جيدا الأسباب التي تدفع بعض الأئمة الى ابتكاره. فالله عدل و قائم بالقسط, و لا يحتكر شئ لأحد. و هذا هو الذي تقضي به معرفة الله الحق, و هو أيضا ما يقضي به القرءان "يهدي الله لنوره من يشاء" و المشيئة هنا ترجع على الانسان, و في النهاية "و ما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العلمين". و هذا أيضا من أسباب عدم وجود قصة المعراج هذه في القرءان.

2 يقال أن "الايات الكبرى" التي راها النبي في سورة النجم هي الايات التي راها في رحلة المعراج هذه و هي :الذهاب بالبراق من مكة الى بيت المقدس في فلسطين, و العروج الى السماء, و رؤية الانبياء و الملائكة و السموات, و الجنة و النار و نماذج من النعيم و العذاب و رؤية الله عند البعض. أقول: عدنا مرة أخرى الى تفسير القرءان بأمور من خارجه و لا علاقة لها به! ثم ان السفر على حمار بسرعة الصوت او أسرع ليس له علاقة بالقرءان و دين الله, و لو كان أمرا مهما و ضروريا للايمان و تعميقه لذكره الله في كتابه, أو على الأقل لسمح للمؤمنين فرصة لتجربة هذا الأمر العظيم. و اما العروج الى السماء, فان السماء ليست شيئا جسمانيا حتى يصعد اليه النبي أو أي شخص بجسمه, و قد كان هذا المعتقد من خرافات تلك الأزمنة, فقد كانوا يعتقدون أن هذه السماء الزرقاء التي فوق أجسامنا هي فعلا السماء التي تسكنها الملائكة و تصعد اليها أرواح الموتى, و أيضا أن كائنا معينا يقف فوق و ينزل المطر, و لعلهم كانوا يتصورون كائنا يمسك دلوا مليئا بالماء و بأمر الاله يسكبه لانزال المطر على الأرض, و من هذه التصورات الصبيانية نشأت طقوس مثل صلاة الاستسقاء, و قد كان الى زمن قريب من الكفر أن تقول أن المطر الجسماني ينزل بسبب تبخر مياه البحار بفعل حرارة الشمس و الدورة المائية المشهورة, هذا كان كفرا,

بالطبع فان أنصاف المتدينين بمثل هذا الدين و الذين لهم مسكة عقل أصبحوا يتبرؤون من مثل هذه التصورات و لعلهم ينفونها عن اباءهم تماما و يأتون بالتفاسير العلمية لمثل هذه الخرافات القديمة, و لذلك لما صعد رجال الفضاء فوق هذه السماء قال أحدهم "اني لم أرى الله!" فكون الملائكة في العالم السماوي و أن المقصود بالسماء هذه السماء التي فوقنا هو أمر مشهور بين اهل الدين و عليه تقام أمور كثيرة, و نرى أثر هذه العقيدة الخرافية في قصة مثل قصة المعراج, و أيضا عند دين الصليبين مثلا الذين يتصورون أن ربهم يسوع صعد الى السماء, كل هذه الخرافات مبنية على أن السماء هي هذه. و لذلك نرى في قصة المعراج أنها جسمانية فعلا في أدق تفاصيلها, حتى ان أسنان موسى قد وصفها النبي بأنها "متراكبة"!! و رؤية بعض الأنبياء هو أيضا مبني على أن الأنبياء أحياء بنفس هيئاتهم الجسمانية التي كانوا بها على الأرض. و من اكبر الأمور التي قام بها هذا التصور هو أنه يصور أنبياء القرءان على انهم شخصيات تاريخية و ليس أمثال و رموز. و قد عالجنا هذا التصور المجانب للحق و المضر جدا في مواضع أخرى فلا نعيد. و أما رؤية الملائكة و السموات (بالمعنى الشائع) فلو كان امرا ضروريا أو مهما لقوة الايمان لفتحه الله لكل الناس الراغبين و الساعين. و ابرهيم رأى ملكوت السموت و الأرض و لم يعرج به كما فعل بالنبي في هذه القصة. و كذلك الجنة والنار فان تصوير القرءان أعظم و أعمق من تصوير هذه القصة بكثير جدا. و لو كان الهدف من هذه الرحلة هو لزيادة ايمان النبي محمد فقط فلماذا حدّث بها (على فرض أنه فعل أصلا, نحن هنا نسلم و نتزل كثيرا) ؟ و لو كان الهدف من هذه القصة هو هداية الناس, فان هذا الأمر لم يتم لأن هذه الرحلة لن تعطي أثرها الفعلي الا لمن جربها و قام لها, و لكن اذا كان حظه هو مجرد الاستماع و التخيل فان مثلها مثل بقية القصص, فضلا عن غمز القرءان بأنه لا يحوي كل ما من شأنه أن يهدي و يقوي الايمان و الله يقول "أليس الله بكاف عبده" و "أولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم" و "فيه هدى للناس". و حتى أحاديثهم فيها عن النبي أن "من طلب الهدى بغير القرءان أضله الله" و "ما عدل أحد عن القرءان الا الى النار". و هذا فضلا عن ان قصة المعراج تصور الجنة و النار على أنهما أمور جسمانية و ليست نفسية باطنية بالأمثال كما يفعل القرءان. فأين بالضبط هي هذه الايات الكبرى؟ و أي وحدة منهم ليست في القرءان أو ليس في القرءان خير منها و كان فيه ما يكفي النبي عن مثل هذه الرحلة أصلا و التي بنص أنصارها أنها "سببت ردة بين المسلمين". اذا كان النبي نفسه لا يكفيه القرءان للهداية التامة, فهل يلام المؤمن اذا لم يجد في القرءان أيضا الهداية التامة؟ أدع هذا ليجيب عليه أنصار هذه القصة.

3 قصة المعراج بكل تفاصيلها و ملحقاتها تدل على انه كان يوجد في زمن النبي عليه السلام بناء في فلسطين اسمه "بيت المقدس" و كونهم يجعلون اية القرءان تدل عليه فكان اسمه أيضا "المسجد الأقصا", و لهذا أدلة كثيرة و هو أمر مسلم عند انصار هذه القصة, فمثلا عندما سأل المشركون النبي أن يصف لهم بيت المقدس فان جبريل صور له البيت على جناحه كصورة فوتوغرافية و أصبح النبي يصف البناء و أن باب كذا هنا و باب كذا وصفه كذا الى اخره. و ايضا أن النبي يروي عندهم أنه "دخل" المسجد, و صلى "فيه" ركعتين, و "خرج", و أنه ربط البراق في "حلقة الأنبياء" التي يربطون بها دوابهم حينما يدخلون هذا المسجد للصلاة و غيره. أقول: ما رأيكم لو قال لكم أحد أن النبي محمد عليه السلام كان يحب أن يأكل في ماكدونالدز؟ لاشك أنكم ستقولون عنه أنه مجنون, و السبب بسيط و هو أنه في زمن النبي الاول عليه السلام قبل 14 قرنا لم يكن يوجد مبنى أو مطعم اسمه ماكدونالدز. فان هذا القول السخيف يساوي القول بانه في زمن حكم الدولة الرومانية في فلسطين في الزمن الذي كان النبي في مكة

و هو وقت قصة المعراج هذه, كان يوجد بناء اسمه المسجد الأقصا او بيت المقدس. لم يكن يوجد بناء أصلا, لا بيت مقدس و لا بيت مدنس. لا مسجد أقصى و لا مسجد أدنى. لا شئ. هل جننتم!! كيف سمحتم بأن ينطلي عليكم مثل هذه السخافة التي ما بعدها سخافة, بل لا يجوز تسميتها سخافة من شدة سخافتها. لاحظ أنه في كل قصة المعراج لم يذكر النبي ولا مرة واحدة لا لأصحابه و لا للمشركين بأنه ذهب الى "المسجد الأقصا" , بل دائما يقول "بيت المقدس" فلماذا لم يستعمل الاسم القرءاني؟ ثم ان النبي يصف بيت المقدس على أنه بناء تام يدخل و يخرج منه و يصلي فيه.

ألستم تعرفون أن عمر بن الخطاب لما غزا فلسطين هو أول من بنى شئ اسمه مسجد او بناء يعبد فيه الله في تلك المنطقة؟ و القصة مشهورة أن عمر صلى في كنيسة للصليبين, ثم انه سأل كعب الأحبار (العبراني اليهودي الذي أسلم على قول البعض) :أين ترى أن أصلي؟ و في رواية: أين ترى أن نبني مصلى للمسلمين؟ و في رواية: أين ترى أن نجعل المصلى؟ فقال كعب: ان اخذت عني صليت خلف الصخرة (و هي صخرة يعظمها العبرانيين او اليهود), فرد عليه عمر : ضاهيت اليهودية! لا و لكني أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم, و في رواية: بل أبنيه أمامها فان لنا صدور المساجد, و في رواية: بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه و سلم قبلة مساجدنا صدورها, اذهب غليك , فانا لم نؤمر بالصخرة و لكنا أمرنا بالكعبة. أقول: الجمع بين هذه الروايات يدل على أن عمر أولا صلى في كنيسة لأنه لم يكن ثمة بناء اصلا أسمه مسجد أقصا أو بيت مقدس!!! و لو كان يوجد لذهب و "دخل" كما "دخل" النبي و صلى فيه!! ثم انه أراد أن يبني مصلى للمسلمين في هذه البلاد المفتوحة كعادة المسلمين في البلدان التي يفتحوها. فشاور "ابن اليهودية" كما وصفه عمر في رواية, فأشار عليه بأن يجعل صخرة اليهود هي القبلة للمسجد و يكون خلفها و مستقبل لها, و لكن عمر رفض هذه المشورة و بني المسجد متوجه الى الكعبة كما أمرهم رسول الله- حسب قوله. الناس لاحقا هم الذين سموا هذا البناء الذي بناه عمر بالمسجد الأقصى. ثم في سنة 65 للهجرة ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء قبة على هذه الصخرة اليهودية ثم أطلق على هذا الجامع "الجامع الأقصى" و معلوم لأهل التاريخ أن سبب بناء الأموي لهذا الجامع هو لأنه أراد أن يمنع الناس من الذهاب الى مكة حيث يوجد عبد الله بن الزبير الذي أصبح يدعو لنفسه على أنه خليفة المسلمين. أيا كان السبب, فان المعلوم هو أنه لم يكن ثمة بناء أصلا لا مسجد اقصا, و لا بيت مقدس, و بالتالي قول القصة على لسان النبي أنه "دخل" المسجد و "خرج" من المسجد, و أن "باب منه كذا في موضع كذاو و باب منه كذا في موضع كذا" و أن جبريل صوره فوتوغرافيا على جناحه حتى يراه النبي و يصفه لكفار قريش, هو أمر أنبت في رأسي نحو 7 شعرات بيض و أنا أفكر في كيفية قبول الناس له!!

ألستم تقولون أن معبد اليهود اسمه "بيع" و معبد النصارى اسمه "صوامع" و معبد الصابئة على اختلاف اسمه "صلوت" و معبد المسلمين اسمه "مساجد" في الاية التي تقول "لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع و صلوت و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا"؟ و هذا معقول الى حد ما. حسنا, هل يمكن أن توجد البيع في بلدة قبل وجود اليهود؟ بالطبع لا. هل يمكن أن توجد مباني اسمها و مشهورة بأنها "صوامع" في بلدة ما قبل وجود النصرانية أصلا؟ بالطبع لا. حسنا, كيف سولت لكم انفسكم بأمكانية وجود مبنى اسمه "المسجد الاقصى" في فلسطين أبان حكم الدولة الرومانية حيث الاسلام لم يكن يوجد أصلا هناك!! بل ان النبي هو أول من بنى "مسجد" في المدينة. وقبل ذلك لا يوجد لا مسجد و لا يحزنون. و لا يقال أن محل عبادة الله يسمى مسجد. لأنه مع دين القرءان ظهرت المساجد.كما انه مع دين اليهودية ظهرت البيع, و مع دين النصارى ظهرت الصوامع أو الكنائس. و

لذلك فان مؤلف قصة المعراج كان فيه شئ من الأدب و العقل حينما لم يجعل النبي يذكر كلمة "المسجد الأقصا" في خطابه للمشركين أو لأصحابه, بل دائما "بيت المقدس" , اذ لو قال النبي للمشركين "انا ذهبت الى المسجد الأقصا" سيكون قوله مجهولا كما لو قال "انا ذهبت الى ماكدونالدز!" . و لكن خالف الأدب و العقل حينما جعل النبي يتكلم عن "بيت المقدس" و كانه بناء موجود, و لا ادري كيف استطاع أن يقوّله هذا, لعله كان تحت تأثير الحشيش! فانه قد يجعلك ترى أمورا غير موجودة في الواقع كما يقول الخبراء.

عدم وجود مبنى أو شئ اسمه المسجد الأقصا في الزمن المزعوم لقصة المعراج هو من أقوى ان لم يكن أقوى المطاعن في هذه القصة التي يحيط بها العبث من كل مكان. فليحلوه لنا, و ليس له حل.

4 يروى في مشهد المعراج أن جبريل كلما صعد الى سماء استفتح فيقال له: من هذا؟ فيقول : جبريل. فيقال: و من معك؟ فيقول: محمد. فيقال: و قد أرسل اليه؟ فيقول: نعم. فيقال: مرحبا به, فنعم المجئ جاء. و يكرر هذا المشهد سبع مرات على نفس النمط. أقول: ان مدير شركة تجارية صغيرة اذا كان يتوقع زيارة عميل له أي قدر من الأهمية فانه يجهز لذلك و يخبر الحراس و السكرتير بأن يدخله فورا, و على أقل تقدير يعلمه بأن فلان العميل المهم سيأتي. فهذا التنظيم البسيط يظهر ان الله في عليائه لم يحسن مثله! اذا أراد ملك بشري أن يستقبل أحب الناس اليه و اعظمهم أهمية في مملكته فهل يترك هذا الرجل المهم ينتظر عند كل بوابة ينتظر و يستجوب؟ فما بال حرس السماء لا يعلمون بأن محمد سيأتي لزيارة رب العرش في أعظم رحلة على الاطلاق كما يقول أنصار القصة؟

لاحظ ان الحارس لم يكلف نفسه عناء النظر الى من "وراء" الباب, فكل مرة يسألون: من هذا؟ فان هذا يدل على أحد أمرين: اما أن جبريل غير معروف لاهل السماء, و هذا بعيد و لا يقول به أحد. و اما أن الحارس لم ينظر وراء الباب أصلا, و كان كالحارس المضطجع الكسول الذي يسمع الباب يطرق فينادي من محله: من هذا؟ , على هذا الفرض الثاني و هو الوحيد الممكن, فكيف عرف الحارس بوجود شخص مع جبريل ليسأله "و من معك"؟ قد يقال أن الحارس قام لما سمع اسم جبريل و رأى أن معه أحد فسأله "من معك؟" و لكن هذا أدهى, اذ هذا يدل على أن الملائكة لا تعرف محمد رسول الله و خاتم النبيين الذي أكرمه الله بأعظم رحلة و زيارة في الوجود, فأقل ما يمكن توقعه من الله هو أن ينشر صورة محمد عند الحراس (فوتوغرافيا!) كما فعل جبريل في جناحه عندما صور بيت المقدس المزعوم فوتوغرافيا للنبي ليعلمه, و لا أحسب أن تقنية التصوير الفوتوغرافي هي مما لا يقدر عليه الله جل و علا, و لعله من الأمور المتوقعة أيضا أن يقول الله للملائكة كما يفعل أقل الناس في مثل هذه الحالات بل أقل "اسمعوا جيدا أيها الملائكة! فان انسانا مهما جدا سيعرج الي في الوقت الفلاني مع جبريل, أروه التقدير اللازم, و حيوه و فتحوا له الأبواب, و هذه صورته اذا رأيتموه". و لكن كل هذا لم يحصل, بل و لا شئ منه.بل حتى لم يخبرهم ان محمد هو رسول لله اصلا! و يظهر أن الله لم يكن يتوقع معراج محمد (و الذي يفترض أنه هو الذي من به عليه بالمناسبة!) و يظهر أن حراس أبواب قلعة السماء لا يعرفون محمدا , بل يكادوا لا يعرفون جبريل! و لماذا لا يملك جبريل مفتاحا لأبواب السماء؟ اذا كان روح القدس الأمين الذي هو عند ذي العرش مكين يحتاج أن يطرق الأبواب , بابا بعد باب, و يحتاج أن يقع تحت الاستجواب عند كل باب في هويته و هوية من معه, فأي أمين و مكين هذا؟! ان الملك البشري اذا وثق في بشر مثله الى حد ما فانه يأذن له بالدخول الى حجرته الخاصة بدون استأذان منه حتى, فما بالك بدخول أبواب القصر.

و أحسب أن التنبيه على هذا التصوير المفرط في المادية و الدنيوية لعالم السماء هو أمر ظاهر جدا. فمبتكر القصة يصور الله على أنه يسكن في قصر مثله مثل سلاطين العصر. و ليتهم اعتبروا هذا كرموز فقط, فلعل لهذا تأويل جيد و عبر جيدة, المصيبة أنهم يصورونه على أنه شئ جسماني فعلا. فالله عندهم يشبه هارون الرشيد في قصره, بل ان هارون الرشيد اذا كان ينتظر شاعره المحبوب الفاسق فانه يجهز لقدومه و يخبر أهل القصر و الحرس, و لكن مخترع هذه القصة لم يعطي الله و النبي الاحترام الكافي ليجعل العلاقة بينهما تقترب حتى من علاقة هارون الخبيث بشاعره المغني الفاسق. هل علمتم الان ما معنى كون المشرك بكتاب الله هو كمثل الذي يخر من السماء او تهوي به الريح في مكان سحيق.

5 يروى في القصة ان النبي كلما صعد الى سماء فانه يجد أحد الأنبياء و كل ما تذكره الروايات هو أن النبي يسلم على النبي فيرد عليه السلام و يزيد: مرحبا بالابن او الأخ الصالح و النبي الصالح. الا موسى و لنا معه شأن في النقطة السادسة. أقول: ان القرءان يقرر بأن النبي "ما هو على الغيب بضنين" و أن كتم العلم موجب للعنة الله كما هو معروف. فلو كان النبي محمد قد تحدث مع يوسف و عيسى و ادم و غيرهم و أنهم أخبروه بعلوم و أسرار معينة, أو دار بينهم أي حوار مفيد فانه من المتوقع أن النبي محمد عليه السلام كان سيقص علينا ذلك. و هو ما لم يفعله. فاما أن نفترض أنه ضن بالغيب و كتم العلم, و هو مرفوض, و اما أنه لم يدر بينهم أي حوار كما هو الأمر في الرواية, اللهم الا السلام و رده على النحو المختصر الذي نقلوه و نقلناه. فعلى هذا:أي فضيلة أو أي حكمة في رؤية هؤلاء الأنبياء أصلا, على فرض الامكان و الوقوع؟ حتى انهم يرون عن النبي أنه قال للمشركين: فنشر لي رهط من الأنبياء, منهم ابراهيم و موسى و عيسى, و صليت بهم و كلمتهم... أين هذا الكلام؟

6 و أما لرؤية موسى هذه فلها شأن خاص وعجيب. فالنبي عندما وصل الى السماء السادسة رأى موسى, فسلموا على بعض كما حدث في باقي السموات, و لكن حصل أمر زائد, يقول النبي: فلما تجاوزت بكى, قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من امته أكثر ممن يدخلها من أمتي. أقول: فلنبدأ بقوله عن محمد بانه "غلام" فهذه الكلمة فيها تنقيص من مقامه, و قد فطن أنصار القصة الى هذه الثغرة العظيمة فاخترعوا عذرا أقبح من ذنب فقالوا أن غلام هنا ليست على سبيل النقص (و هذا اقرار ضمني منهم أنها تدل على ذلك) و لكن على سبيل التنويه بقدرة الله و عظيم كرمه. ان عمر محمد عند المعراج كان نحو الخمسين, فهل يقال لرجل في الخمسين من عمره أنه غلام؟فهذا بحد ذاته يثبت أن موسى ذكر ذلك على سبيل التنقيص, و يوجد قرائن اخرى على ذلك. ثانيا, ان الله يقول للأنبياء "ان هذه أمتكم أمة وحدة و أنا ربكم فاعبدون" فأين موسى من هذا الأمر؟ موسى يبكي لأن الله سيهدي بمحمد الناس!! موسى يبكي لان الله سيدخل الناس الى الجنة بهذا الغلام و ليس به!! ثم ما هذا التفاخر القبيح في موسى الذي يجعله لا يرى دين الله و الدعوة اليه اللهم الا على سبيل المنافسة فيمن سيدخل الى الجنة اكثر من الاخر, حتى يصل به ذلك الى حد البكاء؟! فقول موسى هذا يدل على الحسد لمحمد, و من قوله هذا يمكن ان نتوقع انه سيقوم بأمور لينتقص بها محمد و أمته, و العجيب أن توقعنا هذا في محله كما سنرى في فكرة الصلوات و التخفيف. فموسى من بين كل الأنبياء هو الذي استوقف محمد و بكى و قال ما قاله, و لكن بقية الأنبياء يظهر أنه اما أن حماسهم للدين ليس مثل موسى (ان تنطعنا و فسرنا بكاءه و قوله هذا على أنه حرص على الدين و نشره), و اما أنهم ليسوا حسادا مثل موسى ليبكوا و يعلقوا مثل تعليقه الطفولي. و على أي الوجهين

نظرت رأيت قبحا لا يقوم به عالم دين من عامة الناس اذا فهم مبادى الدين, فضلا على أن يصل الى مرتبة الكليم و يقول له الله "لا تخف انك انت الأعلى".

7 يقول النبي في الرواية بعد أن جاوز كل السماوات ووصل الى الله: ثم فرضت علي الصلاة, خمسين صلاة كل يوم, فرجعت فمررت على موسى, قال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال موسى: ان امتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم, و اني والله قد جربت الناس قبلك, و عالجت بني اسرئيل أشد المعالجة, فارجع الى ربك فاسأله التخفيف. فرجعت فخفف عني عشرا. و لا زال النبي يتردد بين الله و موسى, حتى قال موسى في أحد المرات: يا محمد والله لقد راودت بني اسرئيل قومي على ادني من هذا فضعفوا فتركوه. فأمتك أضعف أجسادا و قلوبا و أبدانا و أبصارا و أسماعا, و يلتفت النبي كل مرة الى جبريل كانه يستشيره و جبريل لا يكره ذلك و يوافق ضمنيا على اقتراح موسى, حتى انتهى الأمر بعد خمس مرات من التردد أن قال الجبار: يا محمد انه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب كل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب و هي خمس عليك. فاستحى النبي من العودة للتخفيف مرة أخرى بالرغم من الحاح موسى عليه. أقول: أولا, ان الصلة بالله قد ذكرها القرءان بكل تفصيل يريده الله فكل هذه القصة عبث. ثانيا, ها نحن نرى حسد موسى قد أتى اكله, ألا نرى مصداق عمل موسى هذا في قول الله عن اهل الكتب أنهم لا يريدون أن ينزل الينا خير من ربنا؟ فالله عندما أمر بخمسين, على فرض امكانها, فانه لم يأمر عبثا و تهورا حتى يرجع حضرة موسى أو غيره ليصحح الله و ينبهه الى ان الناس لا تحتمل ذلك. "قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات و الأرض". و أي اهانة و مغالطة أكبر من أن توصف أمة محمد من قبل نبي عظيم كموسى على أنها اسوأ من اليهود, أو لعله صدق! فيقول أنهم "أضعف أجسادا و قلوبا و أبدانا و أبصارا و اسماعا", و النبي يوافقه على ذلك, وهذا أعجب. لا أدري أي فضيلة بقيت لهذه الأمة, أو لا أدري أصلا أين ذهب العدل الالهي في خلق الناس. ثم ان كان اليهود أقوى منا اجسادا و قلوبا و أبدانا و أبصارا و أسماعا , فما أتعسنا!! ألا تشم رائحة اليهود في صنع هذه القصة؟ و ليس أجمل من قول الله أنه "لا يبدل القول لدي" بعد أن بدل قوله خمس مرات! ليس أجمل منه الا كيفية تخلص الله من هذه الورطة بحيلة تلمودية حاخامية من الدرجة الأولى فقال أن الحسنة بعشرة فكل صلاة بعشرة. فهل يمكن أيضا للرجل أن لا يصلى الا كل يومين صلاة واحدة بحجة ان الحسنة بمئة كما في قوله "في كل سنبلة مائة حبة"؟ او يصلي ركعتين في المسجد الحرام كل 4000 يوم اذ الصلاة في المسجد الحرام تساوي مئة الف صلاة(عندهم)؟ و لا عجب أن يعمل موسى هنا كمستشار لله فان الحاخام مستشار لله أيضا!

كيف تجرأ موسى أو محمد أو حتى جبريل الذي وافقهم و لم يكره عملهم, من ان يتصور حتى ان الله يمكن أن يأمر بالعسير الحرج , بل الأدهى أن يأمر بالذي لا يستطيع ان يقوم به الناس؟ أين "يريد الله ان يخفف عنكم" و ليس موسى او محمد أو جبريل هو الذي يريد ان يخفف عنا, الله يريد! أين "لا يكلف الله نفسا الا وسعها"؟ فلو كان في وسع الناس أن يقوموا بهذه الخمسين صلاة المزعومة فان حكم الله يجب أن ينفذ, و "الله يحكم لا معقب لحكمه", اذ حكمه- و من اول مرة- هو الأرحم و الأقوم و الأكرم و الأعلم و الأحكم. و لكن ما نراه هنا أن موسى يعقب على حكم الله, و محمد يشك أيضا و ينوي التعقيب فيستشير جبريل , و جبريل روح القدس الأمين يوافق على ذلك, بل الأعجب من كل ذلك أن الله نفسه قد غير رأيه فعلا و رضي بان يتنازل عن حكمه بعد أن نبهه موسى و محمد

الى أن أمة محمد ضعاف القلوب و الأجسام كليا. فالله نفسه يتعلم من تجربة موسى مع بني اسرئيل, و لا أدري هل الله هو الذي شرع الأمور الصعبة جدا على بني اسرئيل مما سبب صعوبات شتى لموسى, و مما جعل الله يتعلم من تجربته التي لم تنجح- و العياذ بالله- فصحح علمه و أحكم شريعته, أم أن موسى هو الذي شرع من هواه لبني اسرئيل فوقع في هذه الصعوبات؟ كلا الوجهين أقبح من صاحبه. فالله هنا كالاله عند العبرانيين التلموديين, يفتقر الى مشورة البشر لحل المعضلات في السماء. فبدل أن نكون نحن الذين نتهور و الله يصححنا و يقوم اتجاهنا, فان هذه القصة تقترح أن الله هو الذي يتهور و موسى الحسود هو الذي يدعوا محمد الغلام الى تصحيح وتقويم أمر الله. تعالى الله و تطهر الرسل عن ذلك. هل فهمت لماذا لا توجد مثل هذه القصص و المشاهد القبيحة في القرءان. لأنها انعكاس لقبح قلب الذي اخترعها و من يوافق عليها. و من القرائن الاخرى على الصبغة اليهودية في هذه القصة هو أن محمد سأل جبريل بعدما رأى أربعة أنهار بعد أن تجاوز السماء السابعة فقال جبريل له أن اثنين من هذه الانهار هما "النيل و الفرات", ففضلا عن هذا التفسير الخرافي لأصل النيل و الفرات, فان تعظيم العبرانيين اليهود لهما هو امر معروف كما في زعمهم أن الاله وعدهم بأرض "من النيل الى الفرات".

8 و لكن القصة بصورة عامة مأخوذة من مصدر فارسي قديم على الارجح , قبل ظهورالنبي محمد عليه السلام بنحو400 سنة. و هي القصة المروية في كتاب فارسي يذكر كيف ان رجلا صعد به كائن اسمه "سروش" و هو ما يوازي جبريل في الاسراء, و صعد به سماء بعد سماء حتى وصل الى العرش فراى نور الاله الأعلى, و رأى الجنة و النار و ما الى ذلك مما يكاد يتطابق حرفيا مع قصة المعراج هذه لولا تغيير الأسماء و شئ بسيط هنا و هناك. و هذا يفسر المصدر الحقيقي الذي اقتبس منه من اخترع هذه القصة و نسبها الى محمد, و لعله فعل ذلك بحسن نية كما اختلقوا على محمد الكثير من الخصائص و المعجزات المزعومة ليسوع الناصري رب الصليبيين, و كثير من هذه الاختلاقات يمكن أن نقول أن دافعها هو الدعوة الى الدين, فعندما بدأت الدولة العربية الاسلامية بالتوسع في الأرض فقد كان يجب ان ينشروا الدين لسبب أو لاخر, و حتى يقربوا الدين من أهل البلاد المفتوحة فيجب أن يستعملوا رموز و قصص دين هؤلاء الناس و يصبغوها بصبغة اسلامية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا, اذ ان تعليم الناس العربية و جعلهم يتعلقون مباشرة بالقرءان الذي هو صلة المؤمن بربه و دراسته هي معراج المؤمن الى العرش الحقيقي, فان هذا فضلا عن صعوبته الشديدة جدا و المدة الطويلة التي سيأخذها, فانه كان و لا يزال من اهم اهداف ائمة الدين و السلاطين هو أن يبعدوا الناس عن القرءان و دراسته مباشرة و باستقلال, حتى يكونوا هم الكهنة المسؤولين عن الدين و باقي الناس عوام و مقلدين يجب أن يتبعوهم. فأحسن طريقة لادخال أهل هذه البلاد في الاسلام الذي ينفع الدولة هو أساسا بأمرين: أن يتحول الدين الى طقوس جسمانية , اذ الكل يمكن ان يقوم بهذه الطقوس, و ثانيا أن يستعيروا من الأديان المنتشرة في البلاد المفتوحة أهم الأمور و صبغه بصبغة اسلامية و نسبته الى رموز الدين كالنبي مثلا. و معلوم للمتعمقين في مسائل الدين و مقارنة الأديان و التاريخ مقدار العقائد و الفروع التي استعارها اسلام الأحزاب من الأديان الاخرى, بل انه من شدة و كثر هذه الاستعارات أصبحنا نرى نظريات تقول بأن محمد نفسه استعار القرءان من الأديان الأخرى. و من هذه الاستعارات المشهورة هي قصة المعراج هذه. و لا شك أن الاستعارة لا تعني قص و لزق القصة حرفيا , بل يجب أن تجرى عليها تعديلات معينة تخفي الى حد ما أن القصة مقتبسة من الاخرين, و أن ندخل عليها أسماء قرءانية, و اذا استطعنا أن نسند القصة الى اية قرءانية فهو أمر جميل جدا و يعطيها مصداقية أكبر مهما كان هذا الاستناد سخيفا و سطحيا بل و متعارضا مع

ايات اخرى فلا بأس اذ أغلب الظن ان عامة الناس لن تدقق, و الذي يدقق أغلب الظن أنه لن يضحي بسمعته من أجل انكار خرافة يعتنقها الناس و يصادق عليها كبار السادة. فتمر بذلك الأمور المنحولة و لا رقيب و لا حسيب يطاع. طالما ان القصة ليست من القرءان و منسوبة الى القرءان فانه لابد أن مصدرها من كتب أخرى جملة أو تفصيلا. و في قصة المعراج هذه فان مصدر القصة على الاغلب هو هذا الكتاب الفارسي أرتيوراف نامك. فليراجعه من يشاء فانه موجود و منشور. و حتى اذا ثبت قول البعض أن هذه القصة الفارسية هي التي تأثرت بقصة المعراج, و هو قول بعيد و لا حاجة لاهل الفرس أن يختلقوا قصص كهذه, فمع ذلك فان نظرية اقتباس قصة المعراج من الفرس يعطينا اجابة مقبولة الى حد ما في مسألة مصدر القصة هذه طالما أن مصدرها يقينا ليس القرءان, و من دراستها يثبت انه يستحيل أن تصدر من النبي محمد عليه السلام الملتزم بالقرءان.

9 ينسب للنبي محمد عليه السلام بعد أن دخل بيت المقدس (!) و صلى ركعتين, ثم خرج (!) يقول النبي: فجاءني جبريل عليه السلام باناء من خمر و اناء من لبن فاخترت اللبن, فقال جبريل: اخترت الفطرة. و في رواية أخرى أنه بعد أن صعد النبي السموات السبع و رأى الأنهار الاربعة, ثم رفع له البيت المعمور, يقول بعدها: ثم أتيت باناء من خمر, و اناء من لبن, و اناء من عسل, فأخذت اللبن, فقال:هي الفطرة التي أنت عليها و أمتك. ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة في اليوم. اقول: بسبب مثل هذه المشاهد قال البعض أن قصة المعراج تحوي رموزا و اسرار الهية عرفانية. فاللبن رمز على الفطرة هنا. و لكن لندقق قليلا في هذا المشهد. ما علاقة اختيار الفطرة, و هي أمر باطني و عقلي, باختيار اللبن الجسماني الذي يعتمد على ذوق شخصي للفرد ؟ اذا اخذنا بالسير النبوية فان محمد عليه السلام كان راعي أغنام, و معروف الى يومنا هذا ان أهل بلادنا (العرب) يعتبرون اللبن و التمر من أساسيات الحياة عامة. فذوق العربي يميل الى اللبن جسمانيا بسبب عادته. فما علاقة هذا باختيار الفطرة؟ يظهر هذا الاختبار على أنه حيلة و ليس اختبار فعلي. فأنا أعرف أن فلانا يحب اللبن بسبب عادته الجسمانية الاجتماعية, و أعلم أيضا أنه يكره الخمر اذ محمد عليه السلام كان يكره الخمر حتى قبل أن ينزل عليه الوحي, و صراحة لا أدري ما قصة العسل و هل هو ضد الفطرة أم ماذا! , المهم أن جبريل بهذه الحيلة جعل محمد يختار اللبن الذي هو رمز الفطرة لسبب من الأسباب العرفانية. فهذا ليس باختبار حسن و لا الاختيار مقبول. ثانيا, بما اننا أصبحنا نتكلم في الرموز فيحق لنا أن نحلل معنى رمز كل من هذه الثلاثة أمور. لاحظ انه في الجنة يوجد أربعة أنهار :ماء و لبن و عسل و خمر. فكل هذه الرموز مقبولة عند الله و المؤمنين. فاذا اعتبرنا الماء رمز ذكر الله الذي يحي كل شئ. و أن العسل هو علم التأويل الباطني الذي يشفي من عذاب الظاهر, و الخمر على أنه العشق الالهي و مقام الوحدة القاهرة لان ذات الله في هذا المقام تنفي كل ذات غيرها و تغطي عليها فيهلك كل شئ و لا يبقى الا وجه الله في الاعتبار, و اللبن هو الاخلاص الخارج من بين فرث الجدال الفكري و دم القتال الجسماني أو هو الفطرة بحسب تفسير جبريل هنا, فمهما نظرنا الى هذه الرموز كلها فان الحقيقة الايمانية تقتضي منا قبول كل هذه الرموز و معانيها الباطنية. فكما أن تأويل اللبن هو الفطرة, فان تأويل الخمر ايضا مقبول و كذلك العسل و لذلك جعلهم الله من رموز الجنة. فاختيار رمز دون رمز هو من الايمان ببعض و الكفر ببعض. و العجيب ان واقع المسلمين يصدق تفسيرنا هذا. ألست ترى اغلبيتهم الساحقة تأخذ برمز و تكفر باخر. فهم اما ياخذون بذكر الله المجرد و لكن لا حظ لهم في العلم بالتأويل أو العشق, و قد يأخذون بالعشق و يتركون العلم, و قد يأخذون ظاهر الأحكام و يتركون ذكر الله و التأله. و هكذا. و لم نجد جامع بين هذه الرموز الأربعة الا قليلا جدا يكادون لا يذكرون. و قصة المعراج تؤسس لهذا الاتجاه و لو من وراء حجب. فمحمد هنا يظهر انه يفضل رمز و مقام على رمز و مقام اخر. و هذا من أكبر الأسباب

العرفانية التي تجعلنا نكاد نجزم تماما بأن محمد الحقيقي لا يمكن أن يقوم بمثل هذا, بل نجزم بذلك فعلا. اذ محمد هو المقام الجامع لكل المقامات, و لذلك بعد أن ذكر الله عدد كبير من الانبياء أصحاب المقامات المختلفة قال بعدها "أولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده" فمحمد هو الذاكر المخلص الفطري العالم العاشق. فلو عرض جبريل على محمد الحقيقي اناء من خمر و اناء من لبن و اناء من عسل فان محمد كان سيقول: يا جبريل أحضر اناء من ماء حتى أمزجهم و أشربهم كلهم! و لطالما رددت على الناس أن محمد الأحزاب ليس هو محمد الكتاب. و هذا من مصاديق ذلك, و ما اكثر المصاديق.

10 يقال ان النبي محمد عليه السلام بعد أن رجع من رحلته هذه و دخل على المشركين و قال لهم أنه رأى ابراهيم و موسى و عيسى ان احد المشركين سأله كالمستهزئ به: صفهم لنا! فرد النبي و بدأ يصف هيئة موسى بتفصيل دقيق على ان لونه كذا و أسنانه كذا. و بدأ يصف عيسى أنه كذا و كذا و حتى أنه يشبه أحد المعاصرين لهم "عروة بن مسعود الثقفي", و أن ابراهيم يشبهه هو. و انصار هذه القصة يرون ان هذا من اكبر دلائل الصدق و الاعجاز. اقول: ربنا افرغ علينا صبرا حتى نتحمل أفكار اخواننا هذه. يا اخواني, هل يمكن لعاقل أو محترم ان يجعل آية صدقه هي أن يصف للناس رجلا هم لا يعرفون وصفه الحقيقي أصلا؟ هل كان عند المشركين أي وسيلة ليعلموا أن وصف النبي لموسى و عيسى و ابراهيم هو وصف صادق؟ بالطبع لا. فلو قال لهم ان موسى كان قزما صينيا, و ان عيسى كان له قرنين من فضة, و أن ابراهيم أصلع يشبه عمر بن الخطاب, هل كان ثمة فرق؟ هم لا يعرفون اشكالهم اصلا, فأي فائدة أن يجيبهم, على فرض أنه يعرف. ان اجابته تدل على خفة عقله, بل ان استهزاء المشركين به لعله ازداد,و يحق لهم ذلك. و اذا افترضنا جدلا أن المشركين كانوا يعلمون بوصف هؤلاء الأنبياء الحقيقي فانه لايوجد أي اعجاز في وصف النبي محمد لهم اذ بذلك يكون هو نفسه قد علم بأوصافهم من نفس المصدر الذي علم منه هؤلاء المشركين. فسؤال المشركين كان عن استهزاء, كما يعلم انصار القصة, و لكن كان على العاقل الذي يواجه بمثل هذا السؤال أن لا يرد عليهم او يفسر لهم أن سؤالهم سخيف و جوابه أيا كان سيكون أسخف.و يشابه هذا المشهد في الرقاعة الفكرية قول أنصار القصة أن وصف النبي لبناء بيت المقدس دليل اعجاز, و حجتهم أن من أهل قريش من سافر الى الشام و رأى بيت المقدس و صدق وصف النبي له!! يا سبحان الله عليكم, أليس النبي أيضا سافر الى الشام, فلعله رأى هذا البيت كما رآه أهل قريش هؤلاء (البيت الغير موجود بالمناسبة), و لعل أحد الذين سافروا و رأوا هذا البيت(المعدوم) وصفه للنبي, فأي اعجاز و أي دلالة في هذا أيها الناس؟ كم منكم يستطيع أن يصف عشرات المباني في العالم و في شتى البلدان التي لم يسافر اليها في حياته بسبب وصف أحد الذين سافروا و رأوها ووصفوها لهم.هل نحتاج فعلا لكل هذا الكلام لتبيين رقاعة هذه الحجج؟ اذا كانت هذه حججكم اليقينية, فالله أكبر عليكم, و ما اتعس أصحابكم. فهذا المشهد ليس دليل صدق و لا اعجاز, اللهم الا الاعجاز الرهيب الذي يدل عليه قبول بعض البشر لمثل هذه المشاهد على أنها حقائق و اعجازية!

11 يقال أيضا ان من الأدلة "المفحمة" التي اثبت بها النبي انه قد سافر من مكة الى فلسطين و عاد في نفس الليلة هو أن النبي رأى في طريق عودته عير (شئ كالقوافل) بني فلان و بني فلان, و بني فلان أضاعوا ناقة و بني فلان صار معهم كذا. أقول: انه من المفترض أن النبي كان راكبا لبراق "يضع حافره عند منتهى طرفه" ففي طريق العودة من فلسطين الى مكة عندما كان النبي يطير على حمار أبيض بسرعة الضوء, هل يمكن ان يكون قد راى

اصلا أي شئ مما يحدث تحته في الصحراء و في الليل أيضا ؟!! تعال و اركب سيارة تسير بسرعة 300 كلم في الساعة, ثم انظر من النافذة و أرني ان كنت تستطيع ان ترى شيئا, فضلا على ان تعرف أن فلان أضاع بعير أو ناقة. و اذا فرضنا جدلا ان الحمار البراقي ضغط على المكابح و خفف السرعة حتى يستطيع النبي أن يرى ماذا يحدث تحته لتكون له اية, فان الناس الذين تحته لاشك و أنهم سينتبهون و يفزعون من منظر رجل يركب دابة بيضاء طويلة فوق الحمار و دون البغل, و هذا الرجل ينظر اليهم, اليس كذلك؟! و لو حصل هذا لما ارتد أحد, و لكان ايمان الناس أسهل و لكانت رحمة الله أوسع. فطالما أن الله هنا يتوسل بالمعجزات و الخوارق, و نحن نعلم بأن الله اذا عمل عمل أتقنه و أحسنه, فان من الاتقان و الاحسان هنا هو أن النبي في طريق العودة من سفرة يمر على بني فلان وفلان الذين راهم و أخبر عنهم, و يتوقف قليلا و يناديهم: هاي! انظروا أنا راكب على براق, اخبروا قريش عندما ترجعون , حسنا, مع السلامة. بل الأتقن هو أن يجعل الله النبي يركب البراق أمام المشركين و يقوم برحلته و يرجع على اعينهم, كما فعل في معجزة شق القمر المزعومة, فأنتم تقرون بأنه فعلها على أعين الناس. فطالما ان الدين أصبح يقوم على المعجزات و اخبارات الغيب كمعرفة أن بني فلان اضاعوا ناقة او بعيرا في الصحراء, فان المتوقع من الله ان يكمل طريقه و يجعل النبي يركب البراق أمام الناس, بل و أن يجعله أيضا يصعد الى السماء على أعين الناس. فهذا كان سيسهل كل شئ. و لكن مانراه ان الله يقدم رجل و يؤخر أخرى, كما يقال في المثل الشعبي. فنراه يتوسل بالمعجزات و لكنه يتركها مليئة بالثغرات من أعلى رأسها الى أخمص قدميها. ثم دعونا من كل ما فات, اي اعجاز في أن يعرف ان امر معين حصل في منطقة بعيدة عن مكة او قريبة؟ لعله دبر الأمر مع أحد اصحابه ليقوموا بهذه الحيلة لكسب الناس الى الايمان, معلوم أن الكذب يجوز اذا كان بنية حسنة و لكسب الناس الى الايمان عند البعض, كما فعل ابراهيم عندما كسر الأصنام و لما سئل من كسر الأصنام قال "فعله كبيرهم هذا", فهذه كذبة الا أنها كذبة بيضاء كما يقولون و النية من وراءها كسب الناس الى الايمان بالله, فمع هذه القرينة و غيرها يمكن أن يكون النبي قد دبر مع أحد أصحابه ان يأتي له بخبر من هذه العير, او قد يكون أحد أصحابه ينتمي الى بني فلان و فلان, و يكون قد اتفق معه على ان يضيع ناقة في الوقت الفلاني حتى يخبر النبي بذلك و يكون اية اعجاز و دليل على اتصاله بالغيب. و غير ذلك من ممكنات, بل أمور شديدة الاحتمال اذا نظرنا الى الصورة العامة, و أقل ما يقال هو أن من حق المشرك ان يفترض أن النبي يمكن أن يقوم بهذه الحيل لكسب الناس الى صفه, فالنبي ليس منزها عندهم, بل هو كذاب مجنون و اشر يريد أن يكسب الناس الى دينه بسحره ليتزعمهم. فأي حجة تقوم بعد كل هذا ؟ كم من حجة يراها المستسلم عين اليقين و يراها المدقق لهو شياطين.

12 يقول أنصار هذه القصة أن صلاة النبي بالأنبياء دليل و ارشاد لأتباع هؤلاء الأنبياء انه "يسعهم ما وسع أنبياءهم" أي انه عليهم هم أيضا ان يتبعوا النبي كما تبعه نبيهم. فمثلا, كون موسى صلى وراء محمد, فهذا دليل لليهود أنه عليهم أن يتركوا دينهم اليهودي و يتبعوا دين الاسلام و يتبعوا سنت محمد عليه السلام, و كذلك كون عيسى صلى وراء محمد يعني أنه على المسيحين أن يدخلوا في الاسلام. و هذه من العبر و الدروس المهمة التي يستقونها من هذه القصة. أقول: أولا, هذا الامر لن يكون حجة على اليهود و المسيحين الا اذا رأوا هم بأنفسهم أن أنبياءهم يصلون خلف النبي محمد عليه السلام. فأي حجة و أي دلالة في زعم المسلمين أن أنبياءهم صلوا وراء نبيهم؟ اني بدأت أعتقد فعلا أنكم لا تقولون هذا الكلام الا على سبيل اللعب و اللهو, و الا فانه فعلا يستحيل على انسان يحترم نفسه و الناس أن يعرض عليهم مثل هذا الكلام, فضلا عن أن يرى فيه "اعجاز و دروس".

تصورا أيها المسلمون أن البهائيين قالوا لكم أن نبيهم المجدد بهاء الله قال أن محمد و أبوبكر و علي ابن أبي طالب صلوا وراءه في احدى رحلاته الاعجازية لعالم الغيب, ثم جاء البهائيين و استقوا درسا من هذه القصة و هو أنه على المسلمين سنة و شيعة و خوارج و كلهم عليهم أن يتركوا دينهم و مذاهبهم , و أن شرع بهاء الله نسخ شريعة محمد , و أنه يسع المسلمين ما وسع نبيهم من اتباع بهاء الله-قدس سره- و الصلاة خلفه, ماذا سيكون رايكم في أناس يخرج من عقولهم و أفواههم مثل هذا الكلام؟ لاشك أنكم ستجعلوه حديث المجالس للتندر و الضحك على رؤوس هؤلاء البهائيين البله. و لو فعلوا ذلك لحق لكم أن تضحكوا عليهم فعلا. فانتبهوا الى أنكم أنتم تقومون بمثل هذه السخافة البلهاء. فاستيقظوا. ثانيا, ها أنتم زعمتم ان موسى و عيسى صلوا وراء محمد فعلى اليهود و النصارى ان يتبعوا محمد, فأين بوذا و زرادشت و كرشنا مثلا؟ فأتباع هؤلاء أكثر من اليهود و المسيحين. فلماذا لم يصلي بوذا و زرادشت و كرشنا وراء محمد ليكون هذا دلالة على أنه يسع البوذيين ما وسع نبيهم أو معلمهم؟ أم ان الحقيقة هي انه في ذلك العصر لم يكونوا يعلمون شيئا يذكر عن أمثال بوذا و كرشنا فزعموا أنه لم يصلي وراء محمد الا موسى و عيسى و ابراهيم و غيرهم من المشاهير في الوسط العربي (اذا صدقنا قصص السير طبعا, و دون ذلك خرط القتاد) ثالثا, و هذه للمرة الكم نتنزل و نتعامل مع أسماء موسى و عيسى و ابرهيم على انهم شخصيات تاريخية و ليسوا أمثال فقط, و لكني أغض الطرف عن هذا حتى نثبت لهم أننا حتى لو سرنا وراءهم فانهم لن يصلوا الا الى جهنم الجهل. فلو أراد الله أن يثبت لليهود و المسيحين أنه عليهم أن يتبعوا محمد لأن موسى و عيسى صلوا خلف محمد, فانه سيجعل هذا المشهد علنيا أمام أعين اليهود و المسيحين, و ليس قائما على دعوى رجل واحد و هو نفس الرجل الذي له المصلحة في اختراع هذه الشهادة لنفسه! فحتى في احاديثكم أن النبي محمد يقول "لو يعطى الناس بأقوالهم لادعى اناس دماء اخرين و اموالهم, و لكن البينة على من ادعى". و معلوم انه لو كان لكل شخص أن يزعم أن الأنبياء صلوا خلفهو ان هذا دليل على ان الناس يجب ان تتبعه, فلعلي سأكون من الذين يصلي وراءهم موسى و محمد و بوذا و عزرائيل أيضا.

هذه خلاصة الانتقادات على هذه النظرية. و كما قلت و أكرر, أن أكبر مطعن على هذه القصة هو أنها ليست في القرءان. و كل ما سوى ذلك هو زيادات قمنا بها من باب حب الدراسة و النقد , و حب تقريب رؤيتنا للذين لايعرفونها. و السلام على من اتبع الهدى.